

أساسة مؤلفات فضيلة الشيخ ٥٧



تفسير

القرآن الكريم

سورة الكهف

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

عمر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تَفْسِيرُ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
سُورَةُ الْكَافِي

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير القرآن الكريم: سورة الكهف. / محمد بن صالح العثيمين - الدمام، ١٤٢٣هـ

١٨٩ ص: ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين: ٥٧)

ردمك: ٩٩٦٠-٧٦٧-٤٥-٠

١- القرآن - التفسير بالماثور. ٢- القرآن - سورة الكهف - تفسير.

أ - العنوان

١٤٢٣/٦٠١٧

ديوي ٢٢٧.٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٦٠١٧

ردمك: ٩٩٦٠-٧٦٧-٤٥-٠

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا أن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الخامسة

١٤٤٢هـ

يُطلب الكتاب من:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات: ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والعصري في جمهورية مصر العربية

دار الذرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٢٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة.

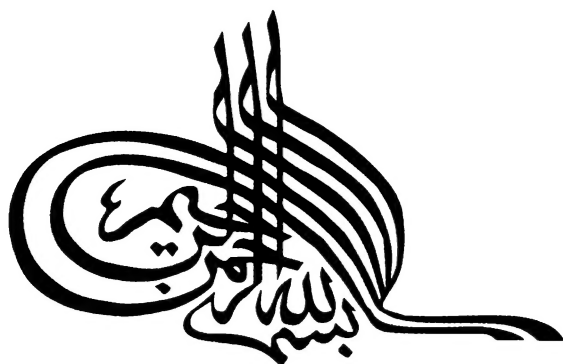
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

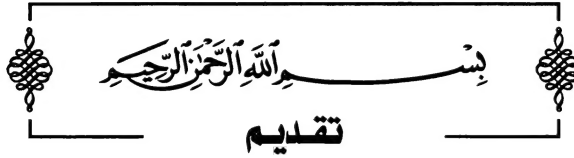


تفسير
القرآن الكريم
سورة الكهف

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية





• • • • •

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَسَّرَ لِفَضِيلَةِ شَيْخِنَا الْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ ابْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ -تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِوَسَائِعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ- تَفْسِيرَ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَذَلِكَ فِي الدَّوْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي عَقَدَهَا فِي شَهْرِ ربيعِ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ ١٤١٩ هـ، فِي جَامِعِهِ بَعْنِيزَةَ، وَقَدْ عُرِضَتْ مَادَّةُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى فَضِيلَتِهِ بَعْدَ تَفْرِيفِهَا، فَرَاغَهَا -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَحَرَّرَهَا وَاعْتَمَدَهَا، ثُمَّ صَدَرَتْ طَبْعَتُهُ الْأُولَى عَامَ ١٤٢٣ هـ.

وَسَعِيًّا لِتَعْمِيمِ النَّفْعِ بِهَذِهِ التَّعْلِيقَاتِ، وَإِنْفَاذًا لِلْقَوَاعِدِ وَالضُّوَابِطِ وَالتَّوْجِیْهَاتِ الَّتِي قَرَّرَهَا شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ لِإِخْرَاجِ ثُرَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ؛ بِأَشْرَ الْقِسْمِ الْعِلْمِيِّ بِالْمُؤَسَّسَةِ تَهْيِئَةَ هَذَا الْكِتَابِ وَتَجْهِيزَهُ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ نَافِعًا لِعِبَادِهِ، وَأَنْ يَجْزِيَ فَضِيلَةَ شَيْخِنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الْمُثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ،
وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

القِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

١٣ محرم ١٤٤٢ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

سورة الكهف مكية واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات : أولها (١-٨)، وآية رقم (٢٨) و من (١٠٧-١١٠) على أنها مدنية. ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل لأن الأصل أن السور المكية مكية كلها وأن المدنية مدنية كلها، فإذا رايت استثناء فلا بد من دليل. والمكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة مثل قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت وليكم نعمتي ورزيتكم نعم الله) ديننا فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع قال تعالى:

أَلْخَسَفُ إِلَيْهِ أَلِيْقَ أَنْزَلَ عَلَيْنَا غُثِّيهِ الْقَبْطِ وَالْمِمْسِكِ لَمْ
يُوجِبْ قَبِيْمًا لِيُنْزِلَ بَلَاءَ فَيُفِيْتَنَا مِنْ لَدُنْهُ وَيُخَيِّرَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَقُولُونَ الصَّلَاحُ أَنْ لَمْ أَجْزِ أَحْسَنًا ۝

• ﴿الحمد﴾: هو وصف الممود بالكمال محبة وتعظيمًا. ويقولنا محبة وتعظيمًا
خرج المدح لأن المدح لا يستلزم المحبة والتعظيم بل قد يمدح الإنسان شخصًا لا
يساوي فلسا ولكن لرجاء منفعة أو دفع مضرة أما الحمد فإنه وصف بالكمال مع
المحبة والتعظيم

• ﴿الله﴾: هذا اسم علم على الله مُختَصَّ به لا يوصف به غيره، وهو عَلَّمَ على
الذات المقدسة تبارك وتعالى.

• ﴿الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ الجملة ﴿الحمد لله الذي أنزل﴾ هل هي
خبر، أراد الله ﷻ أن يُعبر عباده بأنه محمود، أو هي إنشاء وتوجيه على أننا
نحمد الله على هذا، أو الجميع؟
الجواب: الجميع. فهو خبر عن الله عن نفسه وهو إرشاد لنا أن نحمد الله ﷻ على
ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

سورة الكهف مكيّة، واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات: أولها (١-٨)، وآية رقم (٢٨) ومن (١٠٧-١١٠) على أنّها مدنيّة، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل؛ لأن الأصل أن السور المكيّة مكيّة كلّها، وأنّ المدنيّة مدنيّة كلّها، فإذا رأيت استثناء فلا بدّ من دليل.

والمكيّة: ما نزل قبل الهجرة. والمدنيّة: ما نزل بعد الهجرة، حتّى وإن نزل بغير المدينة، مثل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع.



الآيات (١-٣)

• • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا يَنْزِيلُ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.﴾

• • •

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ﴾: هو وَصْفُ المَحْمُودِ بالكَمَالِ محبةً وتعظيمًا. ويقولنا: «محبةً وتعظيمًا» خَرَجَ المَدْحُ؛ لِأَنَّ المَدْحَ لَا يَسْتَلِزِمُ المَحَبَّةَ والتَّعْظِيمَ، بَلْ قَدْ يَمْدَحُ الإنسانُ شَخْصًا لَا يَسَاوِي فَلَسًا وَلَكِنْ؛ لِرَجَاءِ مَنَفْعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ. أَمَّا الحَمْدُ فَإِنَّهُ: وَصْفُ بِالْكَمَالِ مَعَ المَحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ.

﴿لِلَّهِ﴾: هَذَا اسْمٌ عَلَّمَ عَلَى اللَّهِ، مُحْتَصٌ بِهِ لَا يُوصَفُ بِهِ غَيْرُهُ، وَهُوَ عَلَّمَ عَلَى الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ جُمْلَةٌ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ﴾: هَلْ هِيَ خَبَرٌ؟ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ عِبَادَهُ بِأَنَّهُ مَحْمُودٌ؟ أَوْ هِيَ إِنْشَاءٌ وَتَوْجِيهٌ عَلَى أَنَّنَا نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى هَذَا؟ أَوِ الْجَمِيعُ؟

الجواب: الْجَمِيعُ؛ فَهُوَ خَبَرٌ مِّنَ اللَّهِ عَنِ نَفْسِهِ، وَهُوَ إِرْشَادٌ لَّنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ.

﴿عَبْدِهِ﴾، يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ، وَصَفَهُ تَعَالَى بِالعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ أَعْبَدُ الْبَشَرِ لِلَّهِ.

وقد وصفه تعالى بالعُبودية في حالاتٍ ثلاثٍ:

١ - حال إنزال القرآن عليه، كما في هذه الآية.

٢ - في حال الدفاع عنه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

٣ - وفي حال الإسرائ به، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنشَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. يعني: في أشرف مقامات النبي ﷺ وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه عبدٌ. ونعم الوصف أن يكون الإنسان عبداً لله، حتى قال العاشق في معشوقته:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِعَبْدِهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي^(١)

﴿الْكِتَابَ﴾، أي: القرآن. سُمِّي كتاباً؛ لأنه يُكتبُ، أو لأنه جامعٌ؛ لأنَّ الكتابَ بمعنى: الجمعُ؛ ولهذا يُقال: الكُتُبُ، يعني: المجموعة من الخيل. والقرآن صالح لهذا وهذا؛ فهو مكتوبٌ وهو أيضاً جامعٌ.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾: لم يجعل لهذا القرآن عوجاً، بل هو مستقيمٌ؛ ولهذا قال:

﴿قِيَمًا﴾: وقِيماً: حالٌ من قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾، يعني: حال كونه قِيماً.

فإن قال قائلٌ: لماذا لم نجعلها صفةً؛ لأنَّ (الكتاب) منصوبٌ، و(قِيماً)

منصوبٌ؟

(١) البيت غير منسوب، وانظره في الرسالة القشيرية (٢/ ٣٥٠)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٣٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٣٦).

فالجواب: أَنَّ «قِيَمًا» نَكْرَةٌ، و«الكتاب» مَعْرِفَةٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوصَفَ الْمَعْرِفَةُ
بِالنَّكْرَةِ. ومعنى ﴿قِيَمًا﴾، أي: مُسْتَقِيمًا غَايَةَ الْإِسْتِقَامَةِ. وهنا ذَكَرَ نَفْيَ الْعَيْبِ أَوَّلًا،
ثُمَّ إِبْثَاتِ الْكَمَالِ ثَانِيًا. وهكذا ينبغي أَنْ تُحْلِيَ الْمَكَانَ مِنَ الْأَذَى، ثُمَّ تَضَعِ الْكَمَالَ؛
ولهذا يُقَالُ: «التَّحْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيلِ»، يعني: قَبْلَ أَنْ تُحْلِيَ الشَّيْءَ، أَخْلِ الْمَكَانَ عَمَّا
يُنَافِي التَّحْلِيَّ ثُمَّ حَلِّهِ. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قِيَمًا ۖ﴾.

تنبيه: وهو أَنَّهُ يَجِبُ الْوُقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾؛ لِأَنَّكَ لَوْ وَصَلْتَ
لِصَارَ فِي الْكَلَامِ تَنَاقُضٌ؛ إِذِ يُوْهِمُ أَنَّ الْمَعْنَى: لَمْ يَكُنْ لَهُ عِوَجٌ قِيَمٌ.
ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الْحِكْمَةَ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى ﴿عَبْدِهِ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ
يَكُونَ عَائِدًا عَلَى ﴿الْكِتَابِ﴾، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ؛ فَالْكِتَابُ نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ؛
لَأَجْلِ أَنْ يُنْذِرَ بِهِ، وَالْكِتَابُ نَفْسُهُ مُنْذِرٌ؛ يُنْذِرُ النَّاسَ.

﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾، أي: مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَالْبَأْسُ هُوَ الْعَذَابُ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيِّنًا﴾ [الأعراف: ٤]. يعني: عَذَابَنَا. وَالْإِنْذَارُ: هُوَ الْإِخْبَارُ
بِمَا يُخَوِّفُ.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التبشير: الْإِخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ. وهنا نَجِدُ أَنَّهُ حُذِفَ الْمَفْعُولُ فِي
قَوْلِهِ: ﴿لِيُنْذِرَ﴾، وَذَكَرَ الْمَفْعُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾: فَكَيْفَ نُقَدِّرُ الْمَفْعُولَ بِ(يُنْذِرُ)؟
الجواب: نُقَدِّرُهُ فِي مُقَابِلِ مَنْ يُبَشِّرُ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ (الْكَافِرِينَ)،
وهذه فائِدَةٌ مِنْ فَوَائِدِ عِلْمِ التَّفْسِيرِ: «أَنَّ الشَّيْءَ يُعْرَفُ بِذِكْرِ قَبِيلِهِ الْمُقَابِلِ لَهُ»، وَمِنْهُ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

﴿ثَبَاتٍ﴾، يعني: مُتَفَرِّقِينَ. والدَّلِيلُ ذِكْرُ الْمُقَابِلِ لَهُ: ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾: يفيدُ أَنَّهُ لَا بَدَّ مَعَ الْإِيمَانِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَلَا يَكْفِي الْإِيمَانُ وَحْدَهُ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: أَلَيْسَ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، يعني: فَمَنْ أَتَى بِهِ؛ فُتِّحَ لَهُ. قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ: هَلْ يَفْتَحُ الْمِفْتَاحُ بِلَا أَسْنَانٍ؟

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ لِجَبْرِيلَ حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، يعني: يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ: وَمَتَى يَكُونُ الْعَمَلُ صَالِحًا؟

الجواب: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ صَالِحًا إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ شَيْئَيْنِ:

١- الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ تَعَالَى: بِأَلَّا يَقْصِدَ الْإِنْسَانُ فِي عَمَلِهِ سِوَى وَجْهِ اللَّهِ وَالْدَّارِ الْآخِرَةِ.

٢- الْمُتَابَعَةَ لَشَرِيعَةِ اللَّهِ: أَلَّا يَخْرُجَ عَنِ شَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، سِوَاءَ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ غَيْرِهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الشَّرَائِعَ بَعْدَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهَا مَنْسُوخَةٌ بِشَرِيعَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَضِدُّ الْإِخْلَاصِ: الشَّرْكُ. وَالْإِتِّبَاعُ ضِدُّ الْإِبْتِدَاعِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَا الْبِدْعَةُ لَا تُقْبَلُ مَهْمَا أَرَادَتْ فِي قَلْبٍ صَاحِبِهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْخُشُوعِ، وَمَهْمَا كَانَ فِيهَا مِنْ تَرْقِيقِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: كُلُّ بِدْعَةٍ - مَهْمَا اسْتَحْسَنَهَا مُبْتَدِعُهَا - فَإِنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، بَلْ هِيَ ضَلَالَةٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ^(١). فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، لَكِنَّ الْقَلْبَ فِيهِ رِيَاءٌ، فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ؛ لِفَقْدِ الْإِخْلَاصِ. وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا خَالِصًا عَلَى غَيْرِ وَفْقِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ. إِذَا لَا بَدَّ مِنْ أَمْرَيْنِ: إِخْلَاصٍ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَاتِّبَاعٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ صَالِحًا، ثُمَّ يَتَنَ تَعَالَى مَا يُشِيرُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ:

﴿أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَكْتُوبٌ فِيهِ أَبَدًا﴾:

﴿أَجْرًا﴾، أَي: ثَوَابًا. وَسَمَّى اللَّهُ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ أَجْرًا؛ لِأَنَّهَا فِي مُقَابَلَةِ الْعَمَلِ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَنْ يُسَمِّيَ الثَّوَابَ الَّذِي يُثَبُّ بِهِ الطَّائِعَ أَجْرًا، حَتَّى يَطْمَئِنَّ الْإِنْسَانُ لُضْمَانِ هَذَا الثَّوَابِ؛ لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ أَنَّ الْأَجِيرَ إِذَا قَامَ بِعَمَلِهِ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْأَجْرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَسَنًا﴾: جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ هَذَا الْوَصْفِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وَجَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فَهَلْ نَأْخُذُ بِمَا يَقْتَضِي التَّسَاوِي؟ أَوْ بِمَا يَقْتَضِي الْأَكْمَلُ؟

الْجَوَابُ: بِمَا يَقْتَضِي الْأَكْمَلُ؛ فَنَقُولُ: ﴿حَسَنًا﴾، أَي: هُوَ أَحْسَنُ شَيْءٍ، وَلَا شَكَّ فِي هَذَا؛ فَإِنَّ ثَوَابَ الْجَنَّةِ لَا يُعَادِلُهُ ثَوَابٌ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾، أي: باقين فيه أبدًا، إلى ما لا نهاية؛ فلا مرض، ولا موت، ولا جوع، ولا عطش، ولا حر، ولا برد، كلُّ شيءٍ كاملٌ من جميع الوجوه.

واعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنة موجودة الآن، وأنها مؤبدة! وأن النار موجودة الآن، وأنها مؤبدة. وقد جاء هذا في القرآن؛ فآيات التأييد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال، فقد ذكر التأييد في آيات ثلاث:

١- في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

٢- في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

٣- في سورة الجن، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وإذا كانت ثلاث آيات من كتاب الله صريحة في التأييد، فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل:

وَلَيْسَ كُلُّ خِلَافٍ جَاءَ مُعْتَبَرًا إِلَّا خِلَافًا لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ^(١)

(١) ذكره السيوطي في الإتيان (١/ ٤٥)، نقلا عن أبي الحسن ابن الحصار.

وما ذُكِرَ مِنَ الْخِلَافِ فِي أَبَدِيَّةِ النَّارِ لَا حَظَّ لَهُ: كَيْفَ يَقُولُ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ:
﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، ثُمَّ يُقَالُ: لَا أَبَدِيَّةَ؟! هَذَا غَرِيبٌ، مِنْ أَغْرَبِ مَا يَكُونُ، فَانْتَبِهُوا
لِلْقَاعِدَةِ فِي مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: «أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ الْآنَ»؛ لِأَنَّ اللَّهَ
ذَكَرَ فِي الْجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ﴾، وَفِي النَّارِ: ﴿أُعِدَّتْ﴾.

وثنائياً: أَنَّهُمَا مُؤَبَّدَتَانِ، لَا تَفْنَيَانِ لَا هُمَا، وَلَا مَنْ فِيهِمَا كَمَا تَقَدَّمَ.



الآيتان (٤، ٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَسُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.﴾

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَسُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: كالإيضاح لما أُبهم في الآية السابقة، فيه إنذارٌ لمثل النصارى الذين قالوا: إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ، وللإهود الذين قالوا: الْعَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ، وللمشركين الذين قالوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ. و(العزير) ليس بنبي، ولكنه رجل صالح.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بالولد أو بالقول؛ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾، أي: بهذا القول، أو ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾، أي: بالولد ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، فإذا انتفى العلم ما بقي إلا الجهل. ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قالوا مثل قولهم، ليس لهم في ذلك علم، ليس هناك إلا أوهام ظنوها حقائق، وهي ليست علومًا. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: قد يُشكّل على طالب العلم نصب ﴿كَلِمَةً﴾.

والجواب: ﴿كَلِمَةً﴾ تمييز، والفاعل محذوف، والتقدير: «كَبُرَتْ مَقَالَتُهُمْ كلمة» تخرج من أفواههم، أي: عظمت؛ لأنها عظيمة - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴿١٠﴾﴾ أَنْ

دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١١﴾ وَمَا يُنْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿[مريم: ٩٠-٩٣]﴾. يعني: مستحيل غاية الاستحالة أَنْ
يكونَ له وَلَدٌ.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾
[الزخرف: ٨١].

الجواب: نَعَمْ. ولكنَّ التَّعليقَ بالشَّرْطِ لا يدلُّ على إمكانِ المشروط؛ لأنَّا
نفهمُ من آياتٍ أُخرى أَنَّهُ لا يُمكنُ أَنْ يكونَ، وهذا كقوله تعالى للرَّسُولِ ﷺ:
﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾
[يونس: ٩٤]. وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُمكنُ أَنْ يَشْكَّ، ولكنَّ على فرضِ الأمرِ الذي
لا يَقَعُ، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فَإِنَّهُ لا يُمكنُ أَنْ يكونَ فِيهِمَا آلِهَةٌ سِوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَتَبَيَّنَ
بهذا أَنَّ التَّعليقَ بالشَّرْطِ لا يدلُّ على إمكانِ المشروط، بل قد يكونُ مُستَحِيلًا غايةَ
الاستحالة.

قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: هل لنا أَنْ نستفيدَ مِنْ قوله: ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَنَّ
هؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأنهم لا يَسْتَقِينُونَ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا؛ لأنَّ
أَيَّ عاقلٍ لا يُمكنُ أَنْ يقولَ: إِنَّ اللَّهَ وَلَدًا. فكيف يُمكنُ أَنْ يكونَ لله وَلَدٌ؟ وهذا
الوَلَدُ مِنَ الْبَشَرِ نراه مِثْلَنَا؛ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَلْبَسُ، وَيَلْحَقُهُ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ وَالْحَرُّ
وَالْبَرْدُ: كيف يكونُ وَلَدُ اللَّهِ تعالى؟ هذا غيرُ مُمكنٍ؛ ولذلك قال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا﴾: (إِنْ) بمعنى: (ما)، وَمِنْ علاماتِ (إِنْ) النَّافِيَةِ أَنْ يَقَعَ بَعْدَهَا (إِلَّا): ﴿إِنْ
أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿إِنْ يَقُولُوا إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقول هؤلاء إِلَّا كَذِبًا. والكَذِبُ: هو الخبرُ المخالفُ للواقع. والصَّدْقُ: هو الخبرُ المطابقُ للواقع.

فإذا قال قائلٌ: «قَدِمَ فلانُ اليومَ»، وهو لم يقدِّم، فهذا كَذِبٌ، سواءً عَلِمَ أم لم يعلم. ودليلُ ذلك قصَّةُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما مات عنها زوجها وهي حاملٌ، فوَضَعَتْ بعد مَوْتِهِ بِلْيَالٍ، ثُمَّ خَلَعَتْ ثِيَابَ الْحِدَادِ، وَلَبَسَتْ الثِّيَابَ الْجَمِيلَةَ؛ تريدُ أَنْ تُحْطَبَ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ، فقال لها: «مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ»؛ لَأَنَّهَا وَضَعَتْ بعد موتِ زوجها بِنَحْوِ أربعين ليلةً أو أَقَلَّ أو أَكْثَرَ، فَلَبَسَتْ ثِيَابَ الْإِحْدَادِ، ثُمَّ أَتَتْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وأخبرته بالخبر، فقال لها: «كَذَبَ أَبُو السَّنَابِلِ»^(١). مع أَنَّ الرَّجُلَ ما تَعَمَّدَ الكَذِبَ، يَظُنُّ أَنَّهَا تَعْتَدُّ بِأَطْوَلِ الْأَجَلَيْنِ، فَإِنْ بَقِيَتْ حَامِلًا بعدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ بَقِيَتْ فِي الْإِحْدَادِ حَتَّى تَضَعُ. وَإِنْ وَضَعَتْ قَبْلَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ بَقِيَتْ فِي الْإِحْدَادِ حَتَّى تَمَّ لَهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ؛ تَعْتَدُّ أَطْوَلَ الْأَجَلَيْنِ، وَلَكِنَّ السُّنَّةَ بَيَّنَّتْ أَنَّ الْحَامِلَ عَدَّتْهَا وَضَعُ الْحَمْلِ، وَلَوْ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَالشَّاهِدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَطْلَقَ عَلَى قَوْلِ أَبِي السَّنَابِلِ (كَذِبَ)، مع أَنَّهُ لم يَتَعَمَّدَ.



(١) أخرجه أحمد (٤٤٧/١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في الصحيحين؛ أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، رقم (٤٩٠٩)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، رقم (١٤٨٥)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(الآية ٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ﴾ ٦ ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾: الخطابُ للرَّسُولِ ﷺ. ﴿ بَنِيعٌ نَفْسَكَ ﴾: مُهْلِكٌ نَفْسَكَ؛
لأنَّه كَانَ ﷺ إِذَا لَمْ يُجِيبُوهُ، حَزَنَ حُزْنًا شَدِيدًا، وَضَاقَ صَدْرُهُ حَتَّى يَكَادَ يَهْلِكُ،
فَسَلَّاهُ اللَّهُ وَبَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْبَلَاغُ،
وَقَدْ بَلَغَ.

﴿ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ ﴾، أَي: بِاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَعْدَ عَدَمِ إِجَابَتِهِمْ
وإِعْرَاضِهِمْ.

﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾، أَي: إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ.

﴿ أَسَفًا ﴾: مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، الْعَامِلُ فِيهِ: ﴿ بَنِيعٌ ﴾، الْمَعْنَى: أَنَّهُ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ
نَفْسَكَ مِنَ الْأَسَفِ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ
اسْتِجَابَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمُهِمَّةُ الرَّسُولِ ﷺ الْبَلَاغُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾
[الرعد: ٤٠]. وَهَكَذَا وَرَثَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ الْعُلَمَاءُ، وَظِيفَتُهُمُ الْبَلَاغُ. وَأَمَّا الْهَدَايَةُ فَبِيْدَ اللَّهِ،
وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ يَخْزَنُ إِذَا لَمْ يَسْتَجِبِ النَّاسُ لِلْحَقِّ، لَكِنَّ الْحَازِنَ إِذَا
لَمْ يَقْبَلِ النَّاسُ الْحَقَّ عَلَى نَوَعَيْنِ:

١- نوعٍ يَحْزَنُ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يُقْبَلْ.

٢- ونوعٍ يَحْزَنُ؛ لَأَنَّ الْحَقَّ لَمْ يُقْبَلْ.

والثاني هو الممدوح؛ لَأَنَّ الْأَوَّلَ إِذَا دَعَا فَإِنَّمَا يَدْعُو لِنَفْسِهِ، والثاني إِذَا دَعَا

فإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: أَنَا أَحْزَنُ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يُقْبَلْ قَوْلِي؛ لَأَنَّهُ الْحَقُّ؛ ولذلك لو تَبَيَّنَ

لِي الْحَقُّ عَلَى خِلَافِ قَوْلِي، أَخَذْتُ بِهِ: فَهَلْ يَكُونُ مُحْمودًا؟ أَوْ يَكُونُ غَيْرَ مُحْمودٍ؟

الجواب: يَكُونُ مُحْمودًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَالْآخِرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا قَبُولَ الْحَقِّ،

سواءً جَاءَ مِنْ قَبْلِهِ أَوْ جَاءَ مِنْ قَبْلِ غَيْرِهِ.



الآيتان (٧، ٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٨﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾. ﴿٨﴾

• • • • •

إذا تأملت القرآن تجد أنه غالباً يُقدِّم الشرع على الخلق، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: ١-٣]. وتأمل الآيات في هذا المعنى، تجد أن الله يبدأ بالشرائع قبل ذكر الخلق وما يتعلق به؛ لأن المخلوقات إنما سُخِّرَتْ للقيام بطاعة الله عزَّوجلَّ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال عزَّوجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. إذا المُهمُّ القيام بطاعة الله عزَّوجلَّ. وتأمل هذه النكتة؛ حتى يتبين لك أن أصل الدنيا وإيجاد الدنيا إنما هو للقيام بشريعة الله عزَّوجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾، أي: صَيَّرْنَا. و«جعل» تأتي بمعنى: خلق وبمعنى: صَيَّرَ؛ فإن تعدت لمفعول واحد، فإنها بمعنى: «خلق»، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وإن تعدت لمفعولين، فهي بمعنى: صَيَّرَ، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]: أي صَيَّرْنَاهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ. وإِنَّمَا نَبِّهْتُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْجَعَلَ بِمَعْنَى: الْخَلَقُ فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ. ويقولون: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: خَلَقْنَاهُ. ولكن هذا غلطٌ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾: هنا «جعل» بمعنى: صَيَّرَ، فالمفعول الأول (ما)، والمفعول الثاني (زينة)، أي: إنَّ ما على الأرض جعله الله زينةً للأرض؛ وذلك لاختبارِ النَّاسِ: هل يتعلَّقون بهذه الزَّينة أم يتعلَّقون بالخالق؟ النَّاسُ ينقسمون إلى قِسْمين: منهم مَنْ يتعلَّقُ بالزَّينة، ومنهم مَنْ يتعلَّقُ بالخالق. واسمَعْ إلى قوله تعالى مُبَيَّنًا هذا الأمر.

﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِيْنَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

إِذَا جَعَلَ اللهُ الزَّيْنَةَ؛ لاختبارِ العِبَادِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ الزَّيْنَةُ فِيمَا خَلَقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَأَوْجَدَهُ، أَمْ مِمَّا صَنَعَهُ الْآدَمِيُّ؛ فَالْقُصُورُ الْفَخْمَةُ الْمُزْخَرَفَةُ زِينَةٌ وَلَا شَكَّ، وَلَكِنَّهَا مِنْ صُنْعِ الْآدَمِيِّ. وَالْأَرْضُ بِجِبَالِهَا وَأَنْهَارِهَا وَنَبَاتِهَا، وَإِذَا أَنْزَلَ اللهُ الْمَاءَ عَلَيْهَا اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، هَذِهِ زِينَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنَبْلُوهُمْ﴾، أَي: نَخْتَبِرُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ لِلخَلْقِ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «أَكْثَرُ عَمَلًا»؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْأَحْسَنِ لَا بِالْأَكْثَرِ. وَعَلَى هَذَا لَوْ صَلَّى الْإِنْسَانُ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، لَكُنْ عَلَى يَقِينٍ ضَعِيفٍ أَوْ عَلَى إِخْلَالٍ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ، وَصَلَّى آخَرَ رَكَعَتَيْنِ بَيِّقِينَ قَوِيٍّ وَمُتَابِعَةٍ قَوِيَّةٍ: فَأَيُّهَا أَحْسَنُ؟ الثَّانِي بِلَا شَكٍّ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِإِحْسَانِ الْعَمَلِ وَإِتْقَانِهِ إِخْلَاصًا وَمُتَابَعَةً.

في بعض العبادات، الأفضل التخفيفُ كركعتي الفجر مثلاً، لو قال إنسانُ: أنا أحبُّ أن أُطيلَ فيها في قراءة القرآن، وفي الركوع والسُّجود والقيام، وآخرُ قال: أنا أريدُ أن أُخففَ، فالثاني أفضلُ؛ ولهذا ينبغي لنا إذا رأينا عامياً يُطيلُ في ركعتي الفجر أن نسأله: هل هاتان الركعتان ركعتا الفجر أو تحية المسجد؟ فإن كانت تحية المسجد فشأنه، وإن كانت ركعتي الفجر قلنا: لا، الأفضل أن تُخففَ، وفي الصَّيام رخصَ ﷺ لأُمَّته أن يُواصلوا إلى السَّحر، ونَدَبهم إلى أن يُفطروا من حين غروب الشمس، فصام رجلان أحدهما امتدَّ صومه إلى السُّحور، والثاني أفطرَ من حين غابت الشمس: فأيُّهما أفضلُ؟ الثاني أفضلُ بلا شك، والأوَّل - وإن كان لا يُنهي عنه - فإنه جائزٌ، ولكنه غيرُ مشروعٍ، فانتبه لهذا ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ ولذلك نجدُ النبي ﷺ يفعلُ من العبادات ما كان أحسنَ؛ يَحُثُّ على اتِّباعِ الجنائزِ، ومَثَرُ به الجنائزُ ولا يَتَّبِعُهَا. يَحُثُّ على أنْ نصومَ يوماً ونُفطرَ يوماً، ومع ذلك هو لا يفعلُ هذا، بل كان أحياناً يُطيلُ الصَّومَ، حتَّى يُقالَ: لا يُفطرُ. وبالعكس، يُفطرُ حتَّى يُقالَ: لا يصومُ. كلُّ هذا يَتَّبِعُ ما كان أَرْضَى اللهُ وأَصْلَحَ لِقَلْبِهِ.

قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا﴾: هذه الأرض بزيئتها، بقصورها وأشجارها ونباتها، سوف يجعلها الله تعالى ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾، أي: خالياً، كما قال تعالى: ﴿وَسَتُلَوَّنَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلٌّ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]. أي: نَسْفًا عظيماً؛ ولهذا جاء مُنْكَرًا، أي: نَسْفًا عظيماً. قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿[طه: ١٠٦-١٠٧]. وبلحظة: كُنْ فَيَكُونُ! إذا هذه الأرض يا أخي، لا يَتَعَلَّقُ قَلْبُكَ بها؛ فهي زائلةٌ، هي ستصيرُ كأنْ لم تكن، كما قال: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾

وتأمل الجملة الآن: ﴿وإِنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ فيها مُؤكِّدان، (إِنَّ) و(الَّام)، ثُمَّ إِنَّهَا جاءت بالجملة الاسمية الدالة على القدرة المستمرة، إذا قامت القيامة: أين القصور؟! لا قصور، لا جبال، لا أشجار. الأرض كأنها حَجَرٌ واحدٌ أَمْلَسُ، ما فيها نبات، ولا بناء، ولا أشجار، ولا غير ذلك، سَيُحوِّلُها الله تعالى ﴿جُرُزًا﴾ خاليةً من زيتها التي كانت عليها!



الآيتان (٩، ١٠)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾.

• • ❦ • •

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾: (أَمْ) هنا مُنْقَطِعَةٌ، فهي بمعنى (بَل).

و﴿حَسِبْتَ﴾ بمعنى: ظَنَنْتَ. هنا أتى بـ(أَمْ) المُنْقَطِعَةِ التي تَتَضَمَّنُ الاستفهام؛ مِنْ أَجْلِ شِدَّةِ النَّفْسِ إِلَى الاستماعِ إِلَى القِصَّةِ؛ لِأَنَّهَا حَقِيقَةٌ عَجَبٌ، هذه القِصَّةُ عَجَبٌ.

﴿الْكَهْفِ﴾: الغارُ فِي الجَبَلِ.

﴿وَالرَّقِيمِ﴾، بمعنى: المَرْقُومِ، أي: المَكْتُوبُ؛ لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي حَجَرٍ عَلَى هَذَا الْكَهْفِ قِصَّتُهُمْ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

﴿كَانُوا﴾، أي: أَصْحَابُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ.

﴿مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾: مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ.

﴿عَجَبًا﴾، أي: مُحَلٌّ تَعَجُّبٍ وَاسْتِغْرَابٍ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ سَبْعَةٌ، مَعَهُمْ كَلْبٌ كَرِهُوا مَا عَلَيْهِ أَهْلُ بَلَدِهِمْ مِنَ الشَّرِّ؛ فَخَرَجُوا مُتَّجِهِينَ إِلَى اللَّهِ، يَرِيدُونَ أَنْ يَنْجُوا بِأَنْفُسِهِمْ

مَّا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ بَلَدِهِمْ، فَلَجَأُوا إِلَى هَذَا الْغَارِ، وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حِظِّهِمْ أَنَّ هَذَا الْغَارَ لَهُ بَابٌ لَا يَتَّجِهُ لِلْمَشْرِقِ وَلَا لِلْمَغْرِبِ، سُبْحَانَ اللَّهِ! تَوْفِيقٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ اتَّجَهَ إِلَى الْمَشْرِقِ، لَأَكَلَتْهُمْ الشَّمْسُ عِنْدَ الشُّرُوقِ، وَلَوْ اتَّجَهَ إِلَى الْمَغْرِبِ، لَأَكَلَتْهُمْ عِنْدَ الْغُرُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الكهف: ١٧]. وسيأتينا إن شاء الله تعالى.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾: مِنْ هُنَا بَدَأَتِ الْقِصَّةُ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ ﴿إِذْ أَوَى﴾: مُتَعَلِّقًا بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: «اذْكُرْ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ»، وَكَانَ كِفَارُ قَرِيشٍ قَدْ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قِصَّتِهِمْ، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَقْرَأِ الْكِتَابَ، قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا رِتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فَوَعَدَهُمْ؛ فَأَنْجَزَ اللَّهُ لَهُ الْوَعْدَ.

و﴿الْفِتْيَةُ﴾: جَمْعُ: فَتَى، وَهُوَ الشَّابُّ الْكَامِلُ الْقُوَّةَ وَالْعَزِيمَةَ.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾، أَي: لَجَأُوا إِلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِمْ فَارَّينَ مِنْهُمْ؛ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ قَوْمَهُمْ مِنَ الشَّرِّ وَالْكَفْرِ بِالْبَعْثِ، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾: لَجَأُوا إِلَى اللَّهِ.

﴿إِنَّا﴾: أَعْطَانَا.

﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾، أَي: مِنْ عِنْدِكَ.

﴿رَحْمَةً﴾، أَي: رَحْمَةً تَرْحُمُنَا بِهَا، وَهَذَا كَقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلَّمَنِي دُعَاءَ أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي

ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ،
وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١).

﴿وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، ﴿وَهَيَّ﴾: اجْعَلْ لَنَا. وَتَهَيَّئِ الشَّيْءَ أَنْ يُعَدَّ؛
ليكونَ صالحًا للعمل به.

﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ الرَّشْدُ: ضِدُّ الْغَيِّ، أَي: اجْعَلْ شَأْنَنَا مُوَافِقًا لِلصَّوَابِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر،
باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

الآيتان (١١، ١٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾
ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ۝ ﴾

•••••

قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾، أي: أنمناهم نومة عميقة. والنوم نوعان:

١ - خفيف: وهذا لا يَمْنَعُ السَّمْعَ؛ ولهذا إِذَا نِمْتَ فَأَوَّلَ مَا يَأْتِيكَ النَّوْمُ تَسْمَعُ مِنْ حَوْلِكَ.

٢ - عميق: إِذَا نِمْتَ النَّوْمَ العميقَ لَا تَسْمَعُ مِنْ حَوْلِكَ.

ولهذا قال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾، أي: بحيث لَا يَسْمَعُونَ.

﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾، أي: معدودة، وسيأتي بيانها في قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾: وذلك بإيقاظهم مِنَ النَّوْمِ. وَسَمَّى اللَّهُ الاستيقاظ مِنَ النَّوْمِ بَعْثًا؛ لِأَنَّ النَّوْمَ وَفَاةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ

تَمَّتْ فِي مَنَامِهَا فِئْمَسِئِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ [الزمر: ٤٢]. فَالنَّوْمُ وَفَاةٌ.

وقوله: ﴿بَعَثْنَهُمْ لِتَعْلَمَ﴾: قد يقع فيه إشكال هو: هل الله عَزَّوَجَلَّ لا يعلم قبل ذلك؟

الجواب: لا، واعلم أن هذه العبارة يُرادُ بها شيان:

١ - عِلْمُ رُؤْيَا وظهورٍ ومُشاهدةٍ، أي: لنرى، ومعلومٌ أن عِلْمَ ما سيكون ليس كَعِلْمِ ما كان؛ لأنَّ عِلْمَ الله عَزَّوَجَلَّ بالشَّيءِ قَبْلَ وقوعه عِلْمٌ بأنَّه سيقعُ، ولكنَّ بَعْدَ وقوعه عِلْمٌ بأنَّه وَقَعَ.

٢ - أن العِلْمَ الذي يترتَّبُ عليه الجزاء هو المرادُ، أي: لنَعْلَمَ عِلْمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمُ وَالصَّادِقِينَ﴾ [محمد: ٣١]. قَبْلَ أن يَتَّبِلَيْنَا قد عِلِمَ مَنْ هو المُطِيعُ وَمَنْ هو العاصي، ولكنَّ هذا لا يترتَّبُ عليه لا الجزاء ولا الثَّوابُ، فصار المعنى: لنَعْلَمَ عِلْمَ ظهورٍ ومُشاهدةٍ، وليس عِلْمُ الظُّهورِ والمُشاهدةِ كَعِلْمِ ما سيكونُ، والثَّاني عِلْمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ.

أَمَّا تَحَقُّقُ وقوعِ المعلومِ بالنِّسبةِ لله، فلا فَرْقَ بَيْنَ ما عِلِمَ أَنَّهُ يَقَعُ، وما عِلِمَ أَنَّهُ وَقَعَ، كُلُّ سِوَاءٍ. وَأَمَّا بالنِّسبةِ لَنَا صَحِيحٌ أَنَّا نَعْلَمُ ما سيقعُ في خَبَرِ الصَّادِقِ، لكن ليس عِلْمُنَا بِذَلِكَ كَعِلْمِنَا به إذا شَاهَدْنَاهُ بِأَعْيُنِنَا؛ ولذلك جاء في الحديثِ الصَّحِيحِ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَايِنَةِ»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في تخرجه للعقيدة الطحاوية رقم (٤٠١).

﴿أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾:

قوله: ﴿الْحَزِينِ﴾، يعني: الطائفتين.

وقوله: ﴿أَحْصَى﴾، يعني: أبلغ إحصاء، وليست فعلاً ماضياً، بل اسم تفضيل،

فصار المعنى: أيُّ الحزين أضبط لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا، أي: المدة التي لَبِثوها؛ لأنَّهم تنازعوا

أمرهم، فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]. وقال آخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ

بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. ثمَّ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ اختلفوا: كم لَبِثُوا؟



الآية (١٣)

••❦••

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾.

••❦••

نِعَمَ القائل صدقًا وعِلْمًا، وبيانًا وإيضاحًا؛ لأنَّ كلامَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَضَمِّنٌ لِلْعِلْمِ وَالصِّدْقِ، والفصاحةِ والإرادة؛ أربعةَ أشياء: كلامُه عَزَّوَجَلَّ عن عِلْمٍ، وكلامُه أيضًا عن صِدْقٍ، وكلامُه في غايةِ الفصاحةِ، وإرادتهُ في هذا الكلامِ خَيْرُ إرادةٍ، يريد بما يتكلَّمُ به أن يَهْدِيَ عِبَادَه.

﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: قَصَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَكْمَلَ القِصَصِ وَأَحْسَنُ القِصَصِ؛ لَأَنَّهُ

صادرٌ عن:

١- عِلْمٍ.

٢- عن صِدْقٍ.

٣- صادرٌ بأفصحِ عبارةٍ وأبينها وأَوْضَحِها، ولا كلامَ أَوْضَحُ مِنْ كلامِ اللهِ، إِلَّا مَنْ أَضَلَّ اللهُ قَلْبَهُ، وقال: هذا أساطيرُ الأولين.

٤- وبأَحْسَنِ إرادةٍ لم يُرِدِ اللهُ تعالى بما يَقُصُّ علينا أن نَضِلَّ، ولا بما حَكَمَ علينا أن نَجُورَ، بل أراد أن مَهْدِيَ ونقومَ بِالْعَدْلِ.

وقوله: ﴿نَحْنُ﴾: إذا قال قائلٌ: أليس الله واحدًا؟

فالجواب: نَعَمْ، واحدٌ لا شكَّ، لكن لا شكَّ أنَّه جَلَّ وَعَلَا أَعْظَمُ الْعُظَمَاءِ، والأسلوبُ العربيُّ إذا أَسْنَدَ الواحدُ إلى نَفْسِهِ صِيغَةَ الْجَمْعِ فهو يَعْنِي أنَّه عَظِيمٌ، ومعلومٌ أنَّه لا أَحَدٌ أَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ ولهذا تَجِدُ الْمُلُوكَ أَوْ الرُّؤَسَاءَ إذا أَرَادُوا أَنْ يُصْدِرُوا الْمَرَامِسَ يَقُولُونَ: «نحنُ فلانُ بنُ فلانٍ، نَأْمُرُ بِكَذَا وَكَذَا». إذا كُلُّ ضَمَائِرِ الْجَمْعِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمُرَادُ بِهَا التَّعْظِيمُ.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، أي: نَقْرُؤُهُ عَلَيْكَ وَنُحَدِّثُكَ بِهِ. ﴿نَبَأَهُم﴾، أي: خَبَرَهُمْ. ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بِالصِّدْقِ الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: فِتْيَةٌ شَبَابٌ، وَلَكِنْ عِنْدَهُمْ قُوَّةٌ الْعَزِيمَةُ، وَقُوَّةُ الْبَدَنِ، وَقُوَّةُ الْإِيمَانِ.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: زَادَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ هُدًى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَزِيدُ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ هُدًى، وَكُلَّمَا أَزْدَدَتْ عَمَلًا بِعِلْمِكَ؛ زَادَكَ اللَّهُ هُدًى، أي: زَادَكَ اللَّهُ عِلْمًا.



الآية (١٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ ﴾. ﴿١٤﴾

• • • • •

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، أي: ثَبَّتْنَاهَا وَقَوَّيْنَاهَا، وَجَعَلْنَا لَهَا رِبَاطًا؛ لِأَنَّ جَمِيعَ قَوْمِهِمْ عَلَىٰ ضِدِّهِمْ، وَمُخَالَفَةِ الْقَوْمِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ تَثْبِيتٍ، لَا سِيَّمَا أَنَّهُمْ شَبَابٌ، وَالشَّابُّ رَبًّا يُؤَثِّرُ فِيهِ أَبُوهُ، وَيَقُولُ لَهُ: «اكَفُرْ»! وَلَكِنَّ اللَّهَ رَبَّطَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ؛ فَثَبَّتَهُمْ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا يَا رَبَّ.

﴿ إِذْ قَامُوا ﴾، يعني: فِي قَوْمِهِمْ مُعْلِنِينَ بِالتَّوْحِيدِ، وَمُتَبَرِّئِينَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ. ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: وَلَيْسَ رَبُّ فَلَانٍ وَفَلَانٍ، بَلْ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ مَالِكٌ وَخَالِقٌ، وَمُدَبِّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ الَّذِي هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ مَعْنَاهُ: الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ، وَلَمْ يُبَالُوا بِأَحَدٍ، فَهُمْ كَسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ٧٢].

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا قَاضِيَةٌ مُنْتَهِيَةٌ؛ طَالَتْ بِكَ أَمْ قَصُرَتْ! وَلَا بَدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنَ: إِمَّا الْهَرَمَ وَإِمَّا الْمَوْتَ.

وَنَهَايَةُ الْهَرَمِ الْمَوْتُ أَيْضًا؛ وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ لَذَّائُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ^(١)

الإنسان كلما تذكر أنه سيموت؛ طالبت حياته أم قصرت، فإنه لا يطيّب العيش له، ولكن من نعمة الله عز وجل أن الناس ينسون هذا الأمر، ولكن هؤلاء الناس؛ منهم من ينسى هذا الأمر باستغاله بطاعة الله، ومنهم من ينساه بانشغاله بالدنيا.

﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: السماوات السبع، والأرض كذلك سبع كما جاءت بذلك النصوص، ولا حاجة لذكرها؛ لأنها معلومة، والحمد لله.

﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾: لن ندعو دعاء مسألة، ولا دعاء عبادة إلها سواه، فأقرؤا بالربوبية وأقرؤا بالألوهية؛ الربوبية قالوا: ﴿رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والألوهية قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾، أي: سواه.

﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾: الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكّدات، وهي: (اللام)، و(قد)، و(القسم الذي دلّت عليه اللام).

وقوله: ﴿إِذَا﴾، أي: لو دعونا إلها سواه، ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾، أي: قولاً مائلاً وموغلًا بالكفر، وصدقوا؛ لو أنهم دعوا غير الله إلها، لقالوا هذا القول المائل الموغل بالكفر، والعباد بالله.



(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/٢٧٤)، مع الهوامع (٤٢٨/١).

(الآية ١٥)

••❦••

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾﴾.

••❦••

قوله تعالى: ﴿﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾﴾: يشيرون إلى وجهة نظرهم في انعزالهم عن قومهم، قالوا: ﴿﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾﴾، أي: صيروا آلهة من دون الله، عبدوها من دون الله!

﴿﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾﴾، يعني: هَلَّا ﴿﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾﴾، أي: على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة، وكونهم يعبدونها. فال المطلوب منهم شيان:

١ - أن يُبَيِّنُوا أَنَّ هَذِهِ آلِهَةٌ.

٢ - أن يُبَيِّنُوا أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهَا حَقٌّ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُسْتَحِيلٌ.

﴿﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾﴾: السُّلْطَانُ كُلُّ مَا لِلْإِنْسَانِ بِهِ سُلْطَةٌ، قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ الدَّلِيلُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿﴿إِن عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾﴾ [يونس: ٦٨]. وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ الْقُوَّةُ وَالْعَلَبَةُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ الشَّيْطَانِ: ﴿﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾﴾ [النحل: ١٠٠]. وَقَدْ يَكُونُ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾﴾، أي: بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ يَكُونُ لَهُمْ بِهَا سُلْطَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالُوا:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: (الفاء) للتفريع. «مَنْ»: استفهام بمعنى: النفي، أي: لا أحد أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَاَعْلَمُ أَنَّ الاستفهام إذا ضُمِّنَ معنى النفي صار فيه زيادةٌ فائدة، وهي أَنَّهُ يَكُونُ مُشْرَبًا معنى التَّحْدِي؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمُجَرَّدَ لَا يَدُلُّ عَلَى التَّحْدِي.

لَوْ قُلْتُ: «مَا قَامَ زَيْدٌ»، مَا فِيهِ تَحَدُّ، لَكِنْ لَوْ قُلْتُ: «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟» فَهَذَا تَحَدُّ، كَأَنَّكَ تَقُولُ: أَخْبِرْنِي أَوْ أَوْجِدْ لِي أَحَدًا أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

فَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أَي: مَنْ أَشَدُّ ظُلْمًا مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فِي نِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّ مَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَلَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ، أَنْتَ لَوْ كَذَبْتَ عَلَى شَخْصٍ، لَكَانَ هَذَا ظُلْمًا، وَعَلَى شَخْصٍ أَعْلَى مِنْهُ، لَكَانَ هَذَا ظُلْمًا أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ، فَإِذَا افْتَرَيْتَ كَذِبًا عَلَى اللَّهِ صَارَ لَا ظُلْمَ فَوْقَ هَذَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. وَيَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]. وَ«أَظْلَمُ» تَدُلُّ عَلَى اسْمِ التَّفْضِيلِ: فَكَيْفَ الْجَمْعُ؟ نَقُولُ: إِنَّ الْجَمْعَ هُوَ أَنَّهَا اسْمُ تَفْضِيلٍ فِي نَفْسِ الْمَعْنَى الَّتِي وَرَدَتْ بِهِ، فَمَثَلًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، أَي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مَنَعًا مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَفِي الْكَذِبِ: أَيِ الْكَذِبِ أَظْلَمُ؟ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ، فَتَكُونُ الْأَظْلَمِيَّةُ هُنَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَعْنَى الَّتِي سَيَقُتُ فِيهِ لَيْسَتْ أَظْلَمِيَّةً مُطْلَقَةً؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ أَظْلَمِيَّةً مُطْلَقًا، لَكَانَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّنَاقُضِ، لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّهَا اشْتَرَكَتْ فِي الْأَظْلَمِيَّةِ؟ يَعْنِي: هَذَا أَظْلَمُ شَيْءٌ، وَهَذِهِ أَظْلَمُ شَيْءٌ؟

فالجواب: لا يُمكن؛ لأنَّه لا يُمكنُ أنْ تَقْرَنَ بَيْنَ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فيها اسمُهُ، وَبَيْنَ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؛ فَإِنَّ الثَّانِيَّ أَعْظَمُ، فَلَا يُمكنُ أَنْ يَشْتَرِكَا فِي الْأَظْلَمِيَّةِ، وَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ؛ أَنْ تَكُونَ الْأَظْلَمِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَعْنَى الَّذِي سَيَقْتِ فِيهِ.



الآية (١٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ ١٦﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾: هذا من قولِ الْفِتْيَةِ، يعني: قال بعضهم لبعضٍ: ما دُئِمتُمُ اعْتَزَلْتُمُ قومكم وما يعبدون إِلَّا اللَّهَ.

وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَعْبُدُونَ﴾، وعلى هذا يكون هؤلاء القومُ يعبدون اللَّهَ ويعبدون غيره، والْفِتْيَةُ اعْتَزَلُواهُمْ وما يعبدون إِلَّا اللَّهَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ (إِلَّا) مُنْقَطِعَةً، فيكون المعنى: أَنَّ هؤلاء القومَ لا يعبدون اللَّهَ. ويكونُ المعنى: «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مُطْلَقًا»، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: لكن اللَّهَ لم تَعْتَزِلُوهُ، ولكنكم آمَنْتُمْ بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا عَلَى سَبِيلِ الْإِحْتِيَاظِ، يعني: أَنَّ هؤلاء الْفِتْيَةَ قالوا: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يخشون أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ مِنْ أَقْوَامِهِمْ يَعْبُدُ اللَّهَ.

و(ال) فِي الْكَهْفِ تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ، وَكَأَنَّهُ كَهْفٌ أَلْفُوا أَنْ يَأْوُوا إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْكَمَالُ، أي: إِلَى الْكَهْفِ الْكَامِلِ الَّذِي يَمْنَعُكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ فَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، أَنَّ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى كَهْفٍ مُعَيَّنٍ يَأْوُونَ فِيهِ، وَأَمَّا

الثَّانِي فَوَجَّهَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ كَهْفًا يَمْنَعُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ، فَتَكُونُ (ال) لِبَيَانِ الْكَمَالِ،
أَي: إِلَى كَهْفٍ يَمْنَعُكُمْ وَيَحْمِيكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾، يَعْنِي: أَنْتُمْ إِذَا
فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُسِّرُ لَكُمْ الْأَمْرَ؛ لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ،
وَهُنَا سَوَالٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾: (الفاء)، يَتْبَادَرُ لِلذَّهْنِ أَنَّهَا فِي جَوَابِ
الشَّرْطِ، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ (إِذْ) لَيْسَتْ لِلشَّرْطِ، وَإِنَّمَا الَّذِي لِلشَّرْطِ هُوَ (إِذَا)، أَوْ (إِذْ)
إِذَا اقْتَرَنْتَ بـ(مَا)، فَإِذَا لَمْ تَقْتَرِنْ بـ(مَا) فَلَيْسَتْ لِلشَّرْطِ؟

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِمَّا أَنَّهَا ضَمِنَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ، فَجَاءَتْ (الفاء)
فِي جَوَابِهَا ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾، أَوْ أَنَّ (الفاء) لِلتَّفْرِيعِ، وَلَيْسَتْ وَاقِعَةً فِي جَوَابِ
الشَّرْطِ، وَالْمَعْنَى: فَحِينَئِذٍ ﴿وَإِذْ أَعْرَزَلْتُمُوهُمْ﴾، فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾، أَي: يُهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ شَأْنِكُمْ ﴿مَرْفَقًا﴾، أَي:
مَكَانًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ.



الآية (١٧)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾:

في قوله: ﴿تَزَّوُّرُ﴾ قراءتان: (تَزَّاوَرُ) بتشديد الزاي وأصلها (تَتَزَّاوَرُ)، و(تَزَّاوَرُ) بتخفيف الزاي، والمراد بذلك أنها تميل: ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾: تصوّر كيف يكون الكهف الآن إذا كانت تَزَّاوَرُ عنه ذات اليمين؟ يكون وجه الكهف إلى الشمال؛ ولهذا قال بعضهم: إِنَّ وَجْهَ الكَهْفِ إِلَى (بَنَاتِ نَعْسٍ)؛ النُّجُومِ المعروفة في السَّماء، يعرفها أهل البرّ.

﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾: تكون على شمال الغار.

وقوله: ﴿تَقَرِّضُهُمْ﴾ قيل: المعنى: تتركهم. وقيل: تُصيبُ منهم، وهو الأقرب، أنّها تُصيبُ منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تَمْنَعَ أجسامهم من التَّغْيَرِ؛ لأنَّ الشَّمْسَ كما يقول النَّاسُ: إِنَّهَا صِحَّةٌ وفائدة للأجسام.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ على هؤلاء الْفِتْيَةِ، هذه الْفَجْوَةُ، يعني: الشَّيْءُ الدَّاخِلُ، يعني: ليسوا على باب الكهف مباشرة، بل في مكانٍ داخلٍ؛

لأنَّ ذلكَ أَحْفَظُ لَهُمْ.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ﴾، ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ﴾: دليلٌ على أنَّ الشَّمْسَ هي التي تتحرَّكُ، وهي التي بتحركِها يكون الطُّلُوعُ والغروبُ، خلافاً لما يقولُه النَّاسُ اليومَ من أنَّ الذي يدورُ هو الأرضُ، وأمَّا الشَّمْسُ فهي ثابتةٌ.

فنحنُ لَدَيْنَا شيءٌ من كلامِ الله، الواجبُ علينا أن نُجْريه على ظاهره، وألاَّ نَتَرَخَّزَ عن هذا الظَّاهرِ إلَّا بدليلٍ بَيِّنٍ، فإذا ثَبَتَ لَدَيْنَا بالدَّليلِ القاطعِ أنَّ اختلافَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ بسببِ دَوْرَانِ الأرضِ، فحيثُ يجبُ أنْ نُؤَوِّلَ الآياتِ إلى المعنى المُطابقِ للواقعِ، فنقولُ: إذا طَلَعَتْ في رأيِ العَيْنِ وإذا غَرَبَتْ في رأيِ العَيْنِ، تَرَاوُرُ في رأيِ العَيْنِ، تَقَرُّضُ في رأيِ العَيْنِ، أمَّا قَبْلَ أنْ يَتَيَّنَ لَنَا بالدَّليلِ القاطعِ أنَّ الشَّمْسَ ثابتةٌ، والأرضُ هي التي تدورُ وبدورانها يَخْتَلِفُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، فإنَّنا لا نَقْبَلُ هذا أبداً، علينا أنْ نقولَ: إنَّ الشَّمْسَ هي التي بدورانها يكونُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ؛ لأنَّ الله أَضَافَ الْأَفْعَالَ إِلَيْهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ حينما غَرَبَتِ الشَّمْسُ قال لأبي ذرٍّ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»^(١) فَاسْتَدَّ الذَّهَابَ إِلَيْهَا، وَنَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نَقْبَلُ حَدْسًا وَلَا ظَنًّا، وَلَكِنْ لَوْ تَيَقَّنَّا يَقِينًا أَنَّ الشَّمْسَ ثابتةٌ في مكانها، وَأَنَّ الْأَرْضَ تدورُ حَوْلَهَا، وَيَكُونُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، فحيثُ تأويلُ الآياتِ واجبٌ؛ حتَّى لا يُخَالِفَ الْقُرْآنُ الشَّيْءَ الْمَقْطُوعَ بِهِ.

(١) قال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ حينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُؤْشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، يُقَالُ لَهَا اارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مُغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، رقم (٣١٩٩).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى حَالِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ:

١- خَرُوجُهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ.

٢- إِيوَاؤُهُمْ لِهَذَا الْغَارِ.

٣- تَيْسِيرُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَهُمْ غَارًا مَنَاسِبًا.

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ عَزَّجَلَّ: هَلْ نَعْتَبِرُ أَنَّ هَذَا كِرَامَةٌ؟

الجواب: نَعَمْ، نَعْتَبِرُهُ كِرَامَةً، وَلَا شَكَّ.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدَ لَهُ، وَلِئَا مُرْشِدًا﴾:

﴿مَنْ يَهْدِ﴾: (مَنْ) شَرْطِيَّةٌ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا شَرْطِيَّةٌ حَذْفُ (الْيَاءِ) مِنْ (يَهْدِي)،

وَالْجَوَابُ: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾: وَ(الْمُهْتَدِ) أَصْلُهَا (الْمُهْتَدِي) بِالْيَاءِ، لَكِنْ حُذِفَتْ (الْيَاءُ) تَخْفِيفًا، كَمَا حُذِفَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾، أَي: يُقَدِّرُ أَنْ يَكُونَ ضَالًّا.

﴿فَلَنْ يَحْدَ لَهُ، وَلِئَا مُرْشِدًا﴾، أَي: مَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُرْشِدُهُ إِلَى الصَّوَابِ، وَفِي هَذَا

الْخَبَرِ مِنَ اللَّهِ تَنْبِيهُ إِلَى أَنَّنَا لَا نَسْأَلُ الْهِدَايَةَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّنَا لَا نَجْزَعُ إِذَا رَأَيْنَا مَنْ هُوَ ضَالٌّ؛ لِأَنَّ الْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ، وَلَا نَسْخَطُ الْإِضْلَالَ الْوَاقِعَ مِنَ اللَّهِ، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُرْشِدَ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ، فَهُنَا شَرْعٌ وَقَدَرٌ:

الْقَدَرُ: يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْضَى بِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالْمَقْدُورُ فِيهِ تَفْصِيلٌ. وَالْمَشْرُوعُ:

يَجِبُ أَنْ تَرْضَى بِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَنَحْنُ تَرْضَى أَنْ اللَّهُ جَعَلَ النَّاسَ عَلَى قِسْمَيْنِ؛ مُهْتَدٍ وَضَالٍّ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَسْعَى فِي هِدَايَةِ الْخَلْقِ.

الآية (١٨)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتَحَسَّبُهُمْ أَنْفَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ﴾ ١٨ ﴾ .

• • ❦ • •

قوله تعالى: ﴿ وَتَحَسَّبُهُمْ ﴾: أيها الرائي - إذا رأيتهم - ﴿ أَنْفَاظًا ﴾؛ لأنه ليس عليهم علامة النوم، فالنائم يكون مُسْتَرْخِيًا، وهؤلاء كائنهم أيقاظ؛ ولذلك يُفَرَّقُ الإنسانُ بَيْنَ رَجُلٍ نَائِمٍ، وَرَجُلٍ مُضْطَجِعٍ لَمَّا يراه، حَتَّى لو أَنَّ الْمُضْطَجِعَ أَرَادَ أَنْ يَتَنَاوَمَ وَيَخْدَعَ صَاحِبَهُ، لَعُرِفَ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَائِمٍ. ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ جَمْعُ: رَاقِدٍ.

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾، يعني: مَرَّةً يَكُونُوا عَلَى الْيَمِينِ، وَمَرَّةً عَلَى الشِّمَالِ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ الظَّهَرَ وَلَا الْبَطْنَ؛ لِأَنَّ النَّوْمَ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشِّمَالِ هُوَ الْأَكْمَلُ.

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِعْلَ النَّائِمِ لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ. وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَضَافَ تَقَلُّبَهُمْ إِلَيْهِ، فَلَوْ أَنَّ النَّائِمَ قَالَ فِي نَوْمِهِ: «امْرَأَتِي طَالِقٌ»، أَوْ «فِي ذِمَّتِي لِفُلَانٍ أَلْفُ رِيَالٍ»، لَمْ يَثْبُتْ؛ لِأَنَّهُ لَا قَصْدَ لَهُ وَلَا إِرَادَةَ لَهُ؛ لَا فِي الْقَوْلِ؛ وَلَا فِي الْفِعْلِ.

وَالْحِكْمَةُ مِنْ تَقْلِيلِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَالَ: لِئَلَّا تَأْكُلَ الْأَرْضُ الْجَانِبَ الَّذِي يَكُونُ مُلَاصِقًا لَهَا. وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ: أَنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ هَذِهِ،

الحِكْمَةُ مِنْ أَجْلِ تَوَازُنِ الدِّمِّ فِي الْجَسَدِ؛ لِأَنَّ الدَّمَ يَسِيرُ فِي الْجَسَدِ، فَإِذَا كَانَ فِي جَانِبٍ وَاحِدٍ أَوْ شَكَّ أَنْ يَنْحَرِمَ مِنْهُ الْجَانِبُ الْأَعْلَى، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّبْنَاهُمْ بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾، يعني: كَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَمْ يَنْمَ. ﴿بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ﴾، أي: جالسٌ على بَطْنِهِ، وَقَدْ مَدَّ ذِرَاعَيْهِ.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾: وَهُوَ فَتْحَةُ الْكَهْفِ، أَوْ فِنَاءُ الْكَهْفِ، يَعْنِي: إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفَتْحَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِلَى جَنْبِ الْكَهْفِ فِي فِنَائِهِ؛ لِيَحْرُسَهُمْ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اتِّخَاذِ الْكَلْبِ لِلْحِرَاسَةِ؛ حِرَاسَةِ الْأَدَمِيِّينَ، أَمَّا حِرَاسَةُ الْمَاشِيَةِ فَقَدْ جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَحِرَاسَةُ الْحَرْثِ جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ كَذَلِكَ^(١).

حِرَاسَةُ الْأَدَمِيِّ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَازَ اتِّخَاذُ الْكَلْبِ لِحِرَاسَةِ الْمَاشِيَةِ وَالْحَرْثِ أَوْ لِلصَّيْدِ الَّذِي هُوَ كَمَا، فَاتَّخَاذُهُ لِحِرَاسَةِ الْبَيْتِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾، أي: لَوْ أَطَّلَعْتَ -أَيُّهَا الرَّائِي- عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا، رَهْبَةً يُنْزِلُهَا اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَرَاهُمْ؛ حَتَّى لَا يَحَاوِلَ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْحَقُوهُ، لَكِنَّهُ خَائِفٌ مِنْهُمْ.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾: مُلِئْتُ: لَمْ يُمَلَأْ قَلْبُهُ فَقَطْ، بَلْ كُلُّهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْخَوْفِ الَّذِي يَحْصُلُ لِمَنْ رَأَاهُمْ.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَمْسَكَ كَلْبًا يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٍ إِلَّا كَلْبَ حَرْثٍ أَوْ كَلْبَ مَاشِيَةٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْحَرْثِ وَالْمَزَارَعَةِ، بَابُ اقْتِنَاءِ الْكَلْبِ لِلْحَرْثِ، رَقْمُ (٢٣٢٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ الْأَمْرِ بِقَتْلِ الْكَلَابِ، رَقْمُ (١٥٧٥).

الْأَيْتَانِ (١٩، ٢٠)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

• • •

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾، أي: كما فعلنا بهم من هذه العناية من تيسير الكهف لهم، وإنامتهم هذه المدة الطويلة، بعثهم الله، أي: مثل هذا الفعل بعثناهم، فعلنا بهم فعلًا آخر. ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾: كما جرت به العادة أَنَّ النَّاسَ إِذَا نَامُوا يَتَسَاءَلُونَ إِذَا قَامُوا؛ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: مَاذَا رَأَيْتَ فِي مَنَامِكَ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لَعَلَّ نَوْمَكَ لَذِيذٌ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ﴿ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا ﴾ ليس المعنى: أَنَّهُمْ بُعِثُوا لِلتَّسَاوُلِ، وَلَكِنْ بُعِثُوا، فَتَسَاءَلُوا. فَاللَّامُ جَاءَتْ لِلْعَاقِبَةِ لَا لِلتَّلْعِيلِ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨]. اللَّامُ لَيْسَتْ لِلتَّلْعِيلِ أَبَدًا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّلْعِيلِ؛ لِأَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَلْتَقِطُوهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا، وَلَكِنَّهُمْ التَّقَطُّوهُ، فَكَانَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ ﴾: كما جرت العادة، أي: كم مُدَّة لَبِئْتُمْ؟ ﴿ قَالُوا ﴾

لَيْسَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿١٩﴾، ﴿لَيْسَنَا يَوْمًا﴾، أي: كاملاً.

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، أي: بعض اليوم؛ ذلك لأنهم دخلوا في أوّل النهار وبُعثوا من النّوم في آخر النهار، فقالوا: ﴿لَيْسَنَا يَوْمًا﴾، إنّ كان هذا هو اليوم الثاني، أو ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾، إنّ كان هذا هو اليوم الأوّل، وهذا ممّا يدلّ على عمق نومهم.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض، وكأنّ هؤلاء القائِلين قد شعروا بأنّ النّومة طويلة، ولكن لا يستطيعون أن يُحدّدوا، أمّا الأوّلون فحدّدوا بناءً على الظاهر، وأمّا الآخرون فلم يُحدّدوا بناءً على الواقع؛ لأنّ الإنسان يُفرّق بين النّوم اليسير والنّوم الكثير، ثمّ قال بعضهم لبعض:

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ الورق: هو الفضة، كما جاء في الحديث: «وفي الرّقة رُبُع العُشْرِ»^(١). كان معهم دراهم من الفضة.

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ تَصَمَّنَ هذا:

أوّلاً: جواز التّوكيل في الشّراء. والتّوكيل في الشّراء جائز، وفي البيع جائز أيضاً، فإنّ الرّسول ﷺ وكلّ أحد أصحابه أن يشتري له أضحية وأعطاه ديناراً، وقال: اشترِ أضحية. فاشترى شاتين بالدينار، ثمّ باع إحداهما بدينار، فرجع بشاة ودينار، فدعا له النبي ﷺ أن يبارك الله له في بيعه، فكان لو اشترى ثراباً لربح فيه^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب زكاة الغنم، رقم (١٤٥٤)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ وَكَانَ لَوْ اشْتَرَى الثَّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ. أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٦٤٢).

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث: أنه يجوز تصرّف الفضولي، أي: يجوز للإنسان أن يتصرّف بهال غيره إذا علم أن غيره يرضى بذلك، فهؤلاء وكلوا أحدهم أن يذهب إلى المدينة، ويأتي برزق.

ثانيًا: في هذا أيضًا دليل أنه لا بأس على الإنسان أن يطلب أطيب الطعام؛ لقولهم: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾.

ثالثًا: فيه دليل أيضًا على ضعف قول الفقهاء: إنه لا يصح الوصف بالأفعل، أي: لا يجوز أن أصف المبيع بأنه أطيب كل شيء، فلا تقول: «أبيع عليك براءً أفضل ما يكون»؛ لأنه ما من طيب إلا وفوقه أطيب منه، ولكن يُقال: هذا يرجع إلى العرف، فأطيب، يعني: في ذلك الوقت وفي ذلك المكان: وهل من السنة ما يشهد لطلب الأزكى من الطعام؟ نعم، وذلك أن النبي ﷺ أقر الصحابة الذين باعوا التمر الرديء بتمر جيد؛ ليطعم النبي ﷺ منه^(١)، ولم ينههم عن هذا، وما قال: هذا ترقة، اتركوا طلب الأطيب.

فالإنسان قد فتح الله له في أن يختار الأطيب من الطعام أو الشراب، أو المساكن أو الثياب أو المراكب، ما دام الله قد أعطاه القدرة على ذلك، فلا يلام.

﴿فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقٌ مِنْهُ﴾، يعني: يشتري ويأتي به، فجمعوا بالتوكيل بين

(١) عن أبي سعيد الخدري قال: جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر برقي فقال له النبي ﷺ: «من أين هذا؟» قال بلال: «كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع ليطعم النبي ﷺ»، فقال النبي ﷺ: «أوه أوه عين الربا عين الربا، لا تفعل ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتريه». متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٤)، واللفظ للبخاري.

الشراء والإحضار.

﴿وَلَيْتَلَطَفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أي: يتعامل بخفية؛ لئلا يشعر بهم فيؤذون، وهذا يعني أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا قليلاً. ثم عللوا هذا، أي: الأمر بالتلطف والنهي عن الإشعار بقولهم:

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾.

أي: أنهم لا بد أنهم يقتلونكم، أو يرُدُّونكم على أعقابكم بعد إيمانكم.

﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾، أي: إذا عدُّتم في ملَّتِهِمْ أَبَدًا، وفي هذا دليل على أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة، إلا الوسائل المحرمة؛ فإنها محرمة لا يجوز أن يقع الإنسان فيها.



الْأَيْتَانِ (٢١، ٢٢)

• • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.﴾

• • •

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني: مِثْلُ بَعْثِهِمْ مِنْ نَوْمِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْتَرَهُ عَلَيْهِمْ، يعني: أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ قَوْمَهُمْ.

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَوْمَهُمْ؛ ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ إِمَّا أَنْ الْمَعْنَى: بَقِيَامِ السَّاعَةِ الَّذِي كَانَ يُنْكِرُهُ هَؤُلَاءِ، أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعَةَ نَجَّوْا مِنْ أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ تُقَاتِلُهُمْ وَتَنْهَاهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: ﴿السَّاعَةَ﴾، أَي: قِيَامُ السَّاعَةِ. ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، أَي: لَا شَكَّ، وَاقِعَةٌ لَا مُحَالَةَ.

﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾: مُتَعَلِّقَةٌ بِ«أَعْتَرْنَا». أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ، حَتَّى تَنَازَعُوا

أَمَرَهُمْ بَيْنَهُمْ، تَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: ماذا نَفْعَلُ بِهِمْ؟ أَتُرْكُهُمْ أَمْ ماذا نَصْنَعُ بِهِمْ؟
﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾، يعني: ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا؛ حتى يَكُونَ أَثَرًا مِنَ
الْأَثَارِ، وَحَمَايَةً لَهُمْ.

﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، يعني: تَوَقَّفُوا فِي أَمْرِهِمْ: كَيْفَ يَبْقَوْنَ ثَلَاثَةَ سِنٍ
وَتَسَعِ سِنِينَ، لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَغَيَّرُونَ أَيْضًا؟!

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾: وَهُمْ أَمْرَاؤُهُمْ ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾:
بَدَلٌ مِنْ أَنْ نَبْنِيَ بُنْيَانًا نَحُوطُهُمْ بِهِ وَنَسْتُرُهُمْ بِهِ، وَلَا يَكُونَ لَهُمْ أَثَرٌ. ﴿لَنَتَّخِذَ
عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾، أي: لَنَجْعَلَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا نَتَّخِذُهُ مُصَلًّى. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ فَعَلُوا؛
لَأَنَّ الْقَائِلَ هُمُ الْأَمْرَاءُ الَّذِينَ لَهُمُ الْغَلْبَةُ. هَذَا الْفِعْلُ؛ اتَّخَذُوا الْمَسَاجِدَ عَلَى الْقُبُورِ مِنْ
وَسَائِلِ الشَّرِّ، وَقَدْ جَاءَتْ شَرِيعَتُنَا بِمُحَارَبَتِهِ، حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي سِيَاقِ
الْمَوْتِ: «لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذِّرُ مَا
صَنَعُوا^(١).

ثُمَّ قَالَ عَرَجَلٌ مُبِينًا اخْتِلَافَ النَّاسِ فِي عَدَدِهِمْ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُمْ
كَلْبَهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ
فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(٢٢).

سيقولون: ثلاثة، أربعة، خمسة: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلَانِ لْغَائِبٍ وَاحِدٍ؟

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥، ٤٣٦)،
ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣١)، من حديث عائشة
وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَعْنَى: سَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: ثَلَاثَةٌ، رَابِعُهُمْ كُلُّهُمْ. وَيَقُولُ الْبَعْضُ الْآخَرُ: خَمْسَةٌ، سَادِسُهُمْ كُلُّهُمْ. وَيَقُولُ الْبَعْضُ الثَّلَاثُ: سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ سَيَرُدُّونَ؛ مَرَّةً يَقُولُونَ: ثَلَاثَةٌ. وَمَرَّةً يَقُولُونَ: خَمْسَةٌ. وَمَرَّةً يَقُولُونَ: سَبْعَةٌ. وَكِلَاهُمَا مُحْتَمَلٌ وَلَا يَتَنَافَيَانِ، فَتَجِدُهُمْ أحيانًا يَقُولُونَ: كَذَا. وَأحيانًا يَقُولُونَ: كَذَا، حَسَبَ مَا يَكُونُ فِي أَذْهَانِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾: قَالَ فِي الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُلُّهُمْ﴾، وَ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُلُّهُمْ﴾: كِلَا الْقَوْلَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّهُمْ قَالُوهُ: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أَي: رَاجِحِينَ بِالْغَيْبِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ يَقِينٌ.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ﴾: وَلَمْ يَقُلْ: رَجْمًا بِالْغَيْبِ، بَلْ سَكَتَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَدَدَهُمْ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عِنْدَمَا أَبْطَلَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ صَارَ الثَّلَاثُ صَوَابًا. نَظِيرُهُ: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْمَشْرِكِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾: هَذَا وَاحِدٌ، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾: هَذَا اثْنَانِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]. فَأَبْطَلَ قَوْلَهُمْ:

﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾: وَسَكَتَ عَنِ الْأَوَّلِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ صَحِيحٌ، وَهَذَا لَمَّا قَالَ: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ فِي الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾، يَعْنِي: إِذَا حَصَلَ نِزَاعٌ، فَقُلْ لِلنَّاسِ: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾. وَهَلْ أَعْلَمَنَا اللَّهُ بِعَدَّتِهِمْ؟

الجواب: نَعَمْ، أَعْلَمْنَا بِأَنَّهُمْ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ، يعني: فإذا كان الله أَعْلَمَ بَعَدَتِهِمْ، فالواجبُ أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مَا أَعْلَمْنَا اللهُ بِهِ، ونقولُ جازمينَ بَأَنَّ عِدَّتَهُمْ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ.

﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: ما يَعْلَمُهُمْ قَبْلَ إِعْلَامِ اللهِ أَنَّهُمْ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾، أي: في شَأْنِهِمْ، في زَمَانِهِمْ، في مَكَانِهِمْ، في مَالِهِمْ.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا﴾، أي: لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَصَلَ الْجِدَالَ إِلَى الْقَلْبِ، اشْتَدَّ الْمُجَادِلُ، وَغَضِبَ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاغُهُ وَتَأَثَّرَ، لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْجِدَالِ فِيهِمْ كَبِيرُ فَائِدَةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا﴾، يعني: إِلَّا مِرَاءً عَلَى اللِّسَانِ، لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ.

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ مَا لَا فَائِدَةَ لِلْجِدَالِ فِيهِ، لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُتَعَبَ قَلْبُهُ فِي الْجِدَالِ بِهِ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا؛ أحيانًا يَحْتَمِي بَعْضُ النَّاسِ إِذَا جُودِلَ فِي شَيْءٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، فنقولُ: يَا أَخِي، لَا تُتَعَبْ، اجْعَلْ جِدَالَكَ ظَاهِرًا عَلَى اللِّسَانِ فَقَطْ، لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ؛ فَتَحْتَمِي وَتَغْضَبُ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، فَلَا يَنْبَغِي التَّعَمُّقُ فِيهِ، وَهَذَا كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَوْجَدُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْكَلَامِ الَّذِينَ خَاضُوا فِي التَّوْحِيدِ وَفِي الْعَقِيدَةِ يَأْتُونَ بِأَشْيَاءَ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: «تَسْلُسُلُ الْحَوَادِثُ فِي الْأَزْلِ وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ»، وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ الْفَارِغِ الَّذِي لَا دَاعِيَ لَهُ، وَهُمْ يَكْتُبُونَ الصَّفَحَاتِ فِي تَحْرِيرِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا، مَعَ أَنَّهُ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا. فَالشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ فَائِدَةٌ، لَا تُتَعَبُ نَفْسُكَ فِيهِ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ صَاحِبِكَ الْمُجَادِلَةِ، فَقُلْ لَهُ: «تَأَمَّلِ الْمَوْضُوعَ». وَسُدَّ الْبَابَ.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: ولا تَسْتَفْتِ في أهل الكهف،
 ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من النَّاسِ، سواءً من أهل الكتاب أم من غيرهم أحدًا عن حالهم
 وزمانهم ومكانهم، وفيه إشارة إلى أنَّ الإنسان لا ينبغي أن يَسْتَفْتِيَ مَنْ ليس أهلًا
 للإفتاء، حتَّى وإن زَعَمَ أنَّ عنده علمًا، فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يَكُنْ أهلًا.



الآيتان (٢٣، ٢٤)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾٢٤﴾ .

• • •

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ ﴾: الخطابُ هنا للرَّسُولِ ﷺ، كالخطابِ الذي قَبْلَهُ. ﴿لِشَايٍ﴾، أي: في شيء. ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾: ذكروا^(١) أَنْ قُرَيْشًا أُرْسِلَتْ إِلَى الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ، وَقَالُوا: إِنَّ رَجُلًا بُعِثَ فِينَا، يَقُولُ: إِنَّهُ نَبِيٌّ، فَقَالُوا: اسْأَلُوهُ عَنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

١- عَنْ فِتْيَةٍ خَرَجُوا مِنْ مَدِينَتِهِمْ، وَلَجُّوا إِلَى غَارٍ: مَا شَأْنُهُمْ؟

٢- وَعَنْ رَجُلٍ مَلَكَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا.

٣- وَعَنْ الرُّوحِ.

ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَقَالَ: «أُخْبِرْكُمْ غَدًا». فَتَوَقَّفَ الْوَحْيُ نَحْوَ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا، لَمْ يَنْزَلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَذْرِي عَنْ قِصَصِ السَّابِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ،

(١) رواه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٠١)، ونقله أيضا عن ابن إسحاق: الطبري في تفسيره (١٥/١٤٣)، والقرطبي في تفسيره (١٠/٣٤٦)، وابن كثير في تفسيره (٥/١٣٦).

بِمَعِينِكَ إِذَا لَا زَنَابَ الْمُبِطْلُونَ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨]. ولكن الله اختبره؛ فأُمْسَكَ الْوَحْيَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، كما ابْتَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قَالَ: «لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ، وَطَافَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً يُجَامِعُهُنَّ». وما الذي حصل؟ «أَتَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِشِقِّ إِنْسَانٍ»^(١)؛ حتى يُرِيَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا بَلَغَ فِي الْمَرْتَبَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوَجَاهَةِ، فَإِنَّهُ لَا مَفَرَّ لَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.

مَكَثَ الْوَحْيُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَيَلَحُّقُهُ الْغَمُّ وَالْهَمُّ؛ لِئَلَّا يَتَّخِذَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ مِنْ تَأَخُّرِ إِخْبَارِهِ بِذَلِكَ وَسِيلَةً إِلَى تَكْذِيبِهِ. وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ وَسِيلَةً لِلتَّكْذِيبِ، يَعْنِي: قَدْ يَقُولُونَ وَعَدْنَا مُحَمَّدٌ بِأَنْ يُخْبِرَنَا غَدًا وَلَمْ يَفْعَلْ: فَأَيْنَ الْوَحْيِ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ؟! وَلَكِنْ نَقُولُ: إِنَّ تَأَخُّرَ الْوَحْيِ، وَتَأَخُّرَ إِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَاذِبًا، لَصَنَعَ قِصَّةً فِيهَا بَيِّنٌ لَيْلَةٍ وَضَحَاها، وَقَالَ: هَذِهِ قِصَّتُهُمْ، فَتَأَخَّرَ الْوَحْيُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُخْبِرْهُمْ يَدُلُّ عَلَى كِبَالِ صِدْقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾: إِلَّا قَوْلًا مَقْرُونًا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، فَقَرْنُ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ فَائِدَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَإِنَّمَا الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَسَانًا أَجْمَعُونَ». متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٩)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤). واللفظ للبخاري.

إحداهما: أَنَّ اللَّهَ يُسِّرُ الْأَمْرَ لَهُ، حيث فَوَّضَهُ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا.

والثانية: إِنَّ لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَخْشُ.

فِيُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ أَنَّهُ لَوْ قَالَ: سَأَفْعَلُ هَذَا - عَلَى سَبِيلِ الْحَبْرِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ بوقوعِ الْفِعْلِ - فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَلْزِمُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْمَشِيئَةِ، يَعْنِي: لَوْ قَالَ لَكَ صَاحِبُكَ: هَلْ تَمُرُّ عَلَيَّ غَدًا؟ فَقُلْتَ: نَعَمْ، وَلَمْ تَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَا بَأْسَ؛ لِأَنَّ هَذَا خَبْرٌ عَمَّا فِي نَفْسِكَ، وَمَا كَانَ فِي نَفْسِكَ فَقَدْ شَاءَهُ اللَّهُ، فَلَا دَاعِيَ لَتَعْلِيْقِهِ بِالْمَشِيئَةِ، أَمَّا إِنْ أَرَدْتَ أَنَّهُ سَيَقَعُ وَلَا بُدَّ، فَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الْأَوَّلَ خَبْرٌ عَمَّا فِي قَلْبِكَ، وَالَّذِي فِي قَلْبِكَ حَاضِرُ الْآنَ، وَأَمَّا أَنَّكَ سَتَفْعَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَهَذَا خَبْرٌ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ، وَلَا تَدْرِي: هَلْ يَكُونُ أَوْ لَا يَكُونُ؟ انْتَبِهُوا لِهَذَا الْفَرْقِ؛ إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: سَأَسَافِرُ غَدًا. فَإِنْ كَانَ يُخْبِرُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ خَبْرٌ عَنْ شَيْءٍ وَاقِعٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ يَرِيدُ بِقَوْلِهِ: سَأَسَافِرُ، أَنَّنِي سَأُنْشِئُ السَّفَرَ وَأَسَافِرُ فِعْلًا، فَهَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَلِهَذَا كَانَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾، وَلَمْ تَكُنْ: إِنِّي سَأَفْعَلُ، بَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾، فَلَا تَقُلْ لَشَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ: إِنِّي فَاعِلُهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَقْرُونًا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، يَعْنِي: اذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ؛ بِأَنْ تَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، إِذَا نَسِيتَ أَنْ تَقُولَهَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَنْسَى، وَإِذَا نَسِيَ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، ولا يعيد إلا تلك الصلاة، رقم (٥٩٧) لكنه اقتصر على النسيان دون النوم، ومسلم: كتاب المساجد

فالمشيئة إذا نسيها الإنسان، فإنه يقولها إذا ذكرها، ولكن: هل تنفعه؟ بمعنى: أنه لو حث في يمينه: فهل تسقط عنه الكفارة إذا كان قالها متأخراً؟ من العلماء من قال: إنها تنفعه، حتى لو لم يذكر الله إلا بعد يوم أو يومين، أو سنة أو سنتين؛ لأن الله أطلق: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. ومن العلماء من قال: لا تنفعه إلا إذا ذكر في زمن قريب، بحيث ينبني الاستثناء على المستثنى منه، وهذا الذي عليه جمهور العلماء، فمثلاً إذا قلت: والله، لأفعلن هذا. ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم ذكرت بعد عشرة أيام، فقلت: إن شاء الله، ثم لم تفعل، بناءً على أن من قال: إن شاء الله لم يحث، فمن العلماء من قال: ينفعه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. ومنهم من قال: لا ينفعه؛ لأن الكلام لم ينبني بعضه على بعض. إذا ما الفائدة من أمر الله أن نذكره إذا نسينا؟ قال: الفائدة هو ارتفاع الإثم؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ﴾. فإذا نسيت، فقلها إذا ذكرت. لكن: هل تنفعك، فلا تحث أم يرتفع عنك الإثم دون حكم اليمين؟ الظاهر: الثاني؛ أن يرتفع الإثم، وأما الحث، فإنه يحث لو خالف؛ لأن الاستثناء بالنسبة للحث لا ينبغي إلا أن يكون متصلاً، ثم الاتصال، هل يقال: إن الاتصال معناه أن يكون الكلام متواصلاً بعضه مع بعض؟ أو أن الاتصال ما دام بالمجلس؟

الجواب: فيه خلاف؛ بعضهم يقول: ما دام في المجلس فهو متصل، وإذا قام عن المجلس فقد انقطع، قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»^(١).

= مواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨٤ / ٣١٥)، إلا أنه قدم النسيان على النوم، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب كم يجوز الخيار، رقم (٢١٠٨)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢)، من حديث حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَجَعَلَ التَّفْرِقَ فاصِلًا. ومنهم مَنْ قال: العِبْرَةُ بِاتِّصَالِ الكلامِ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ كَلَامًا يَقْطَعُ مَا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ، فَإِنَّهُ يَنْفَعُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ؛ فَلَا يَخْشَى.

﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾:

(عسى): بِمَعْنَى الرَّجَاءِ إِذَا وَقَعَتْ مِنَ الْمَخْلُوقِ، فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْخَالِقِ فَهِيَ لِلْوُقُوعِ، فَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿[النساء: ٩٨-٩٩]﴾. نَقُولُ: (عسى) هُنَا وَاقِعَةٌ. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿[التوبة: ١٨]﴾. أَمَّا مِنَ الْإِنْسَانِ فَهِيَ لِلرَّجَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنَّ رَبِّي﴾ هَذِهِ لِلرَّجَاءِ.

﴿أَن يَهْدِيَنَّ رَبِّي﴾، أَي: يَدُلُّنِي إِلَى الطَّرِيقِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، أَي: هِدَايَةً وَتَوْفِيقًا، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ، فَهَدَاهُ فِي شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ لِلرَّشَدِ.



الآيتان (٢٥، ٢٦)

••❦••

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِئَلَّيْكُمْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ﴾ (٢٥)
 قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوًّا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ
 دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ﴾ (٢٦).

••❦••

قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّيْكُمْ﴾، يعني: أصحاب الكهف. ﴿فِي كَهْفِهِمْ﴾: الذي اختاروه
 لأنفسهم، وناموا فيه.

﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾: تُكْتَبُ اصطلاحاً «ثلاثمائة» مربوطة؛ ثلاث مربوطة بـ «مائة»،
 وتُكْتَبُ «مائة» بـ (الْأَلِفِ)، لكن هذه الْأَلِفَ لَا يُنْطَقُ بِهَا، وبعضهم يَكْتُبُ «ثلاث»
 وَحْدَهَا و «مائة» وَحْدَهَا، وهذه قاعدةٌ صحيحةٌ.

وقوله: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾:

﴿مِائَةٍ﴾: بالتَّوْنِينِ، و﴿سِنِينَ﴾: تَمَيِّزٌ مُبَيِّنٌ لـ «ثلاثمائة»؛ لَأَنَّهُ لَوْ لَا كَلِمَةُ
 «سِنِينَ»، لَكُنَّا لَا نَدْرِي: هَلْ ثَلَاثُمِائَةُ يَوْمٍ، أَوْ ثَلَاثُمِائَةُ أُسْبُوعٍ، أَوْ ثَلَاثُمِائَةُ سَنَةٍ؟ فَلَمَّا
 قَالَ: ﴿سِنِينَ﴾ بَيَّنَّ ذَلِكَ.

﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: ازدادوا على الثلاث مائة تسع سنين، فكان مَكْثُهُمْ ثَلَاثُمِائَةً
 وَتِسْعَ سِنِينَ. قد يقول قائل: لماذا لم يَقُلْ: ثَلَاثُمِائَةً وَتِسْعَ سِنِينَ؟

فالجواب: هذا بمعنى هذا، لكن القرآن العظيم أَبْلَغَ كِتَابٍ، فَمِنْ أَجْلِ تَنَاسُبِ

رؤوسِ الآياتِ قال: ﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾، وليس كما قال بعضهم بأنَّ السنينَ الثلاثَ مائةً بالشَّمْسِيَّةِ، وازدادوا تِسْعًا بالقَمَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَشْهَدَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ أَرَادَ هَذَا: مَنْ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ أَرَادَ هَذَا الْمَعْنَى؟ حَتَّىٰ لَوْ وَافَقَ أَنْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ هِيَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعُ سِنِينَ قَمَرِيَّةٍ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَشْهَدَ عَلَى اللَّهِ بِهَذَا؛ لِأَنَّ الْحِسَابَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَاحِدٌ: وَمَا هِيَ الْعَلَامَاتُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْحِسَابُ عِنْدَ اللَّهِ؟

الجوابُ: هِيَ الْأَهْلَةُ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ «ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ» شَمْسِيَّةٌ، «وَأَزْدَادُوا تِسْعًا» قَمَرِيَّةٌ قَوْلٌ ضَعِيفٌ.

أَوَّلًا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَشْهَدَ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ أَرَادَ هَذَا.

ثَانِيًا: أَنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ وَالسَّنَوَاتِ عِنْدَ اللَّهِ بِالْأَهْلَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾:

قَوْلُهُ: ﴿قُلِ﴾، أَي: قُلْ: يَا مُحَمَّدُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَمَسُّكَ بِهَا مَنْ يَقُولُ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٥]. هِيَ مِنْ قَوْلِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ مُكْثِ أَهْلِ الْكَهْفِ بِالْكَهْفِ، وَهُمْ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ التَّوْرَةَ تَدُلُّ عَلَى هَذَا، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَبِثُوا﴾ مَفْعُولًا لِقَوْلٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: وَقَالُوا: لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ، وَازْدَادُوا تِسْعًا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾: وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ -وإنَّ قَالَ بِهِ بَعْضُ

المُفسِّرِينَ - فَالْصَّوَابُ خِلَافَهُ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَيْثُوا﴾ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا﴾ مِنْ بَابِ التَّوَكُّيدِ، أَي: توكيدُ الجملة أَنَّهُمْ لَيْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ، وَازْدَادُوا تِسْعًا، وَالْمَعْنَى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا﴾ وَقَدْ أَعْلَمْنَا أَنَّهُمْ لَيْثُوا ﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وَمَا دَامَ اللَّهُ أَعْلَمَ بِمَا لَيْثُوا، فَلَا قَوْلَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أَي: لَهُ مَا غَابَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَوْ لَهُ عِلْمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ حَقٌّ، وَالسَّمَاوَاتُ: جَمْعُ سَمَاءٍ، وَهِيَ سَبْعٌ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ. وَالْأَرْضُ هِيَ أَيْضًا سَبْعُ أَرْضِينَ^(١)، فَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ - عِلْمَ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - إِلَّا اللَّهُ؛ فَلِهَذَا مَنْ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَالْمُرَادُ بِالْغَيْبِ: الْمُسْتَقْبَلُ، أَمَّا الْمَوْجُودُ أَوِ الْمَاضِي فَمَنْ ادَّعَى عِلْمَهُمَا فَلَيْسَ بِكَافِرٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ قَدْ حَصَلَ، وَعَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ مِنَ النَّاسِ، لَكِنَّ غَيْبَ الْمُسْتَقْبَلِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ وَلِهَذَا مَنْ أَتَى كَاهِنًا، يُخْبِرُهُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَصَدَّقَهُ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. أَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ لِقَوْمٍ، وَشَهَادَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِآخَرِينَ. ﴿أَبْصُرْ بِهِ، وَأَسْمِعْ﴾: هَذَا يُسَمِّيهِ النَّحْوِيُّونَ فِعْلَ تَعَجُّبٍ. ﴿أَبْصُرْ بِهِ﴾، بِمَعْنَى: مَا أَبْصَرَهُ.

(١) لقوله ﷺ: «مَنْ افْتَتَحَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظَلَمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، وأصله عند البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٨)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَسْمِعْ﴾، بمعنى: ما أَسْمَعَهُ. وهو أعلى ما يكونُ مِنَ الوَصْفِ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبْصِرُ كُلَّ شَيْءٍ؛ يُبْصِرُ دَيْبَ النَّمْلَةِ السَّودَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ السَّودَاءِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَيُبْصِرُ مَا لَا تُدْرِكُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ مِمَّا هُوَ أَخْفَى وَأَدْقُ. وكذلك فِي السَّمْعِ؛ يَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى مِنَ السِّرِّ، وَيَعْلَمُ الْجَهْرَ ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي قِصَّةِ الْمُجَادِلَةِ الَّتِي ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا، وَجَاءَتْ تَشْتَكِي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ فِي الْحُجْرَةِ، وَالْحُجْرَةُ صَغِيرَةٌ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُحَاطِرُ الْمَرْأَةَ، وَعَائِشَةُ يُخْفِي عَلَيْهَا بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَائِدَهُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسَّعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ، إِنِّي لَفِي الْحُجْرَةِ، وَإِنَّهُ لِيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضَ حَدِيثِهَا»^(١).

واللهُ عَزَّجَلَّ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ سَمِعَ قَوْلَهَا وَمُحَاوَرَتَهَا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَفِيهِ: الْإِيْمَانُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذُو بَصَرٍ نَافِذٍ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَذُو سَمْعٍ ثَاقِبٍ، لَا يُخْفِي عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَالْإِيْمَانُ بِذَلِكَ يَقْتَضِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يُرِيَ رَبَّهُ مَا يَكْرَهُهُ، وَلَا يُسْمِعُهُ مَا يَكْرَهُهُ؛ لِأَنَّكَ إِنْ عَمِلْتَ أَيَّ عَمَلٍ، رَأَاهُ! وَإِنْ قُلْتَ أَيَّ قَوْلٍ، سَمِعَهُ! وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ نَخْشَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ، وَأَلَّا تَفْعَلَ فِعْلاً يَكْرَهُهُ، وَلَا تَقُولَ قَوْلًا يَكْرَهُهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، لَكِنَّ الْإِيْمَانَ ضَعِيفٌ، فَتَجِدُ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ أَوْ أَنْ يَفْعَلَ، لَا يَحْطَرُّ بِبَالِهِ أَنَّ اللَّهَ

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، (٩/١١٧).
 ووصله الإمام أحمد (٦/٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨). وكلهم بأتم ما ذكر في البخاري. ولفظهم أن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسَّعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ، لَقَدْ جَاءَتْ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ تَشْكُو زَوْجَهَا وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

يَسْمَعُهُ أَوْ يَرَاهُ، إِلَّا إِذَا نَبَّهَ، وَالْغَفْلَةُ كَثِيرَةٌ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَنْتَبِهَ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْعَظِيمَةِ.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾:

قوله: ﴿مَا لَهُمْ﴾: هل الضمير يعودُ على أصحابِ الكهفِ، أو على مَنْ هم في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟

الجوابُ: الثاني هو الْمُتَعَيَّنُ، يعني: ليس لِأَحَدٍ وَلِيٌّ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَتَّى الْكَفَّارُ وَلِيَّهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَحَتَّى الْمُؤْمِنُونَ وَلِيَّهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۖ﴾ (١٦) ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴿[الأنعام: ٦١-٦٢]. وَاللَّهُ وَلِيُّ كُلِّ أَحَدٍ، وَهَذِهِ هِيَ الْوَلَايَةُ الْعَامَّةُ، أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْكَافِرِينَ، وَيُنْمِي أَجْسَادَهُمْ، وَيُسِّرُ لَهُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومَ وَالْأَمْطَارَ؟! هَذِهِ وَلَايَةٌ، وَيتَوَلَّى الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا بِذَلِكَ؛ لَكِنَّ هَذِهِ وَلَايَةٌ عَامَّةٌ.

أما الْوَلَايَةُ الْخَاصَّةُ، فَهِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وَالْوَلَايَةُ الْخَاصَّةُ تَسْتَلِزُّ عَنَايَةً خَاصَّةً؛ أَنَّ اللَّهَ يُسَدِّدُ الْعَبْدَ؛ فَيَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ يُخْرِجُهُم بِالْعِلْمِ، فَيُعَلِّمُهُمْ أَوَّلًا، وَيُخْرِجُهُمْ ثَانِيًا بِالتَّوْفِيقِ.

إِعْرَابُ الْجُمْلَةِ هَذِهِ: ﴿مَا﴾: نَافِيَةٌ، وَ﴿لَهُمْ﴾: خَبَرٌ مُّقَدَّمٌ، وَ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾: مُبْتَدَأٌ مُّؤَخَّرٌ، دَخَلَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ حَرْفُ الْجَرِّ الزَّائِدِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ حَذَفْتَ (مِنْ)، وَقُلْتَ: «مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ»، لَاسْتَقَامَ الْكَلَامُ، لَكِنْ جَاءَتْ (مِنْ) مِنْ أَجْلِ التَّوَكِيدِ،

والتَّنْصِصِ عَلَى الْعُمُومِ، يعني: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَوْجَدَ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيٌّ سِوَى اللَّهِ.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾: هذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وقال: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. والحُكْمُ كَوْنِيٌّ وَشَّرْعِيٌّ؛ فَالْحَلْقُ وَالتَّدْبِيرُ حُكْمٌ كَوْنِيٌّ، وَالْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي حُكْمٌ شَّرْعِيٌّ. وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ يَشْمَلُ النَّوعَيْنِ؛ فَلَا أَحَدٌ يُشْرِكُ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ؛ لَا الْكَوْنِيَّ وَلَا الشَّرْعِيَّ. وفيه دليلٌ على وجوب الرجوع إلى حُكْمِ اللَّهِ الشَّرْعِيِّ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نُشَرِّعَ فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ لَا فِي الْعِبَادَاتِ وَلَا فِي الْمُعَامَلَاتِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ لَنَا أَنْ نُشَرِّعَ فِي الْمُعَامَلَاتِ مَا يُنَاسِبُ الْوَقْتَ، فَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ -عَلَى قَوْلِهِمْ- لَنَا أَنْ نُجَوِّزَ الرَّبَّ، وَلَنَا أَنْ نُجَوِّزَ الْمَيْسَرَ، وَأَنْ نُجَوِّزَ كُلَّ مَا فِيهِ الْكَسْبُ، وَلَوْ كَانَ بَاطِلًا.

فالشَّرْعُ صَالِحٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلُهَا^(١).

الحُكْمُ الْكَوْنِيُّ لَا أَحَدٌ يُشْرِكُ اللَّهَ فِيهِ، وَلَا أَحَدٌ يَدَّعِي هَذَا: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْزِلَ الْغَيْثَ؟! وَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُمَسِكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا؟! وَلَكِنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ هُوَ مَحَلُّ اخْتِلَافِ الْبَشَرِ، وَدَعَايَ بَعْضِهِمْ أَنَّ لَهُمْ أَنْ يُشَرِّعُوا لِلنَّاسِ مَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ.



(١) هذا الأثر مشهور عن الإمام مالك رحمه الله تعالى، انظر الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨٨).

الآية (٢٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ﴾ ٢٧ ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾: هذا كالنتيجة لقوله: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾، يعني: إذا كان لا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَدًا فأتل: ﴿ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ .

فقوله: ﴿ وَأَتْلُ ﴾ يشمل التلاوة اللفظية، والتلاوة العملية؛ أمَّا التلاوة اللفظية فظاهر، تقول: فلان تلا عليّ سورة الفاتحة.

والتلاوة الحكمية العملية: أن تعمل بالقرآن، فإذا عملت به، فقد تلوته، أي: تبعته؛ ولهذا نقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [فاطر: ٢٩]. يشمل التلاوة اللفظية والحكمية. والخطاب في قوله: ﴿ وَأَتْلُ ﴾ للرَّسُولِ ﷺ، ولكن اعلَم أن الخطاب للرَّسُولِ ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به؛ فهو خاص به.

الثاني: ما دلَّ الدليل أنه للعموم؛ فهو للعموم.

الثالث: ما يحتمل الأمرين، فقول: إنه عام. وقيل: إنه خاص. وتبعه الأمة لا بمقتضى هذا الخطاب، ولكن بمقتضى أنه أسوتها وقُدوتها.

فمثال الأول الذي دلّ الدليل على أنه خاص به: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. فهذا لا شك أنه خاص به، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَحْذَكَّ يَتِيمًا فَتَاوَى﴾ [الضحى: ٦]. فهو خاص به صلى الله عليه وسلم.

ومثال الثاني الذي دلّ الدليل على أنه عام: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]. فقولهُ: ﴿طَلَقْتُمُ﴾ للجماعة؛ وهم الأُمَّة، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَادَى زَعِيمَهَا وَرَسُولَهَا؛ لأنَّهم تابعون له فقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَقْتُمُ﴾. إذا الخطابُ يَشْمَلُ النَّبِيَّ ﷺ وَجَمِيعَ الْأُمَّةِ. ومثال ما يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ: هذه الآية: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾. لكن قد يقول قائل: إنَّ هذه الآية فيها قرينة قد تدلُّ على أنه خاص به، كما سنذكره -إن شاء الله- ولكنَّ الأمثلة على هذا كثيرة، والصَّوابُ أنَّ الخطابَ للأُمَّةِ، ولكنَّ وُجْهَ لزعيمها وأُسُوتها؛ لأنَّ الخطاباتِ إنَّما تُوجَّهُ للرؤساءِ والمتبوعين.

وقوله: ﴿مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ هو القرآن. وفي إضافة الرَّبِّ إلى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دليلٌ على أنَّ ما أُوْحاه الله إلى رسوله مِنْ تَمَامِ عِنَايَتِهِ بِهِ.

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾، يعني: لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِهِ؛ لا الْكُونِيَّةَ ولا الشَّرْعِيَّةَ؛ أمَّا الْكُونِيَّةُ فَوَاضِحٌ، لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَدِّلَهَا، فإذا قال الله تعالى: ﴿كُنْ﴾ -في أَمْرِ كُونِيٍّ- فلا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَهُ، أمَّا الشَّرْعِيَّةُ فلا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ شَرْعًا أَنْ يُبَدِّلَهَا. والنَّفْيُ هنا ليس نَفْيًا لِلْوُجُودِ، ولكنَّ النَّفْيَ هنا لِلإِمْكَانِ الشَّرْعِيِّ، فلا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ شَرْعًا أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةَ، فالواجبُ على الْجَمِيعِ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لِلَّهِ، فلو قال قائل: وَجَدْنَا مَنْ يُبَدِّلُ كَلَامَ اللَّهِ! فَإِنَّ اللَّهَ أَشَارَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ فِي الْأَعْرَابِ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

قُلْنَا: هذا تبديلٌ شرعيٌّ، والتبديلُ الشرعيُّ قد يقعُ مِنَ البَشَرِ فيُحرِّفونَ الكلامَ عن مواضعه، ويُفسِّرونَ كلامَ اللهِ بما لا يُريدُه اللهُ، وَمِنَ ذلكَ جميعُ المعطَّلَةِ لصفاتِ اللهِ عزَّوجلَّ، أو لِبَعْضِهَا مِمَّنْ بدَّلوا كلامَ اللهِ.

﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، يعني: لن نجدَ -أيُّها النبيُّ- مِن دُونِ اللهِ عزَّوجلَّ مُلْتَحَدًا، أي: أَحَدًا تَمِيلُ إليه أو تَلْجَأُ إليه؛ لَأَنَّ الِاتِّحَادَ مِنَ اللَّحْدِ وهو المِيلُ، يعني: لو أَرَادَكَ أَحَدٌ بِسُوءٍ، ما وَجَدْتَ أَحَدًا يَمْنَعُكَ دُونَ اللهِ عزَّوجلَّ، إِذَا عِنْدَمَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ شَيْءٌ يَتَضَرَّرُ بِهِ أو يَخَافُ مِنْهُ: يَلْتَجِئُ إِلَى مَنْ؟ إِلَى اللهِ. ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].



الآية (٢٨)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾﴾﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، أي: احبسها مع هؤلاء الذين يدعون الله دعاءً مسألةً ودعاءً عبادةً، اجلس إليهم وقو عزائمهم.

وقوله: ﴿بِالْغَدَوَةِ﴾، أي: أوّل النهار، وقوله: ﴿وَالْعَشِيِّ﴾: آخر النهار.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: مُحْلِصِينَ لِلَّهِ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ، ولا يريدون شيئاً من الدنيا، يعني: أنهم يفعلون ذلك لله وحده، لا لأحدٍ سواه.

وفي الآية إثبات الوجه لله تعالى، وقد أجمع علماء أهل السنة على ثبوت الوجه لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقال النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»^(١). وأجمع سلف الأمة

(١) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». قَالَ: «أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». قَالَ: «أَوْ يَلِيسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ». أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ الآية، رقم (٤٦٢٨).

وَأَتَمَّتْهَا عَلَى ثُبُوتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

ولكن: هل يكون هذا الوجهُ مُثَانِلًا لِأَوْجِهِ المَخْلُوقِينَ؟

الجوابُ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُ اللَّهِ مُثَانِلًا لِأَوْجِهِ المَخْلُوقِينَ؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. أي: شَبِيهَا وَنَظِيرًا، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهكذا كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُجَرِّيَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَكِنْ بَدُونِ تَمَثُّلٍ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا أَثَبَّتَ اللَّهُ وَجْهًا لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ التَّمَثُّلُ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. يَعْنِي: إِلَّا فِيهَا أَثَبَّتَهُ، كَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ؟

فالجوابُ: أَنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ حِسًّا وَعَقْلًا أَنَّ كُلَّ مُضَافٍ إِلَى شَيْءٍ فَإِنَّهُ يُنَاسِبُ ذَلِكَ الشَّيْءَ: أَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ وَجْهٌ؟ وَلِلْجَمَلِ وَجْهٌ؟ وَلِلْخُصَانِ وَجْهٌ؟ وَلِلْفِيلِ وَجْهٌ؟ بَلَى، وَهَلْ هَذِهِ الْأَوْجُهُ مُتَمَثِّلَةٌ؟ لَا، أَبَدًا! بَلْ تُنَاسِبُ مَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ. بَلْ إِنَّ الْوَقْتَ وَالزَّمْنَ لَهُ وَجْهٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفِّرُوا بَآخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢]. فَأُثَبَّتَ أَنَّ لِلزَّمَنِ وَجْهًا: فَهَلْ يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ وَجْهَ النَّهَارِ مِثْلُ وَجْهِ الْإِنْسَانِ؟!

الجوابُ: لَا يُمَكِّنُ، إِذَا مَا أَضَافَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْوَجْهِ لَا يُمَكِّنُ يَكُونُ مُثَانِلًا لِأَوْجِهِ المَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ كُلَّ صِفَةٍ تُنَاسِبُ الْمَوْصُوفَ.

فإن قال قائل: إنه قد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»^(١): فما الجواب؟

فالجواب: من أَحَدِ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: إمَّا أَنْ يُقَالَ: لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ عَلَى صُورَتِهِ أَنْ يَكُونَ مُمَثِّلًا لَهُ. والدليل: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ بَأْنَ أَوَّلِ زُرْمَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(٢). ونحن نَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مُمَثِّلَةٌ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَالْقَمَرِ، لَكِنْ «عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ» مِنْ حَيْثُ الْعُمُومُ إِضَاءَةً وَابْتِهَاجًا وَتُورًا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: «عَلَى صُورَتِهِ»، أَي: عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللَّهُ، فإِضَافَةٌ صُورَةِ الْآدَمِيِّ إِلَى اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُصَلِّي فِي الْمَسَاجِدِ، لَكِنْ أُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ، وَعَلَى أَنَّهَا إِنَّمَا بُنِيَتْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَكَقَوْلِ صَالِحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣].

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والأداب، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢)/ (١١٥)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، وأخرجه البخاري: كتاب العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه، رقم (٢٥٥٩) مقتصرًا على الجملة الأولى. وفي الصحيحين: البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٦٢٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفندة الطير، رقم (٢٨٤١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، وصفاتهم وأزواجهم، رقم (٢٨٣٤)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ النَّاقَةَ لَيْسَتْ لِلَّهِ كَمَا تَكُونُ لِلْأَدَمِيِّ يَرْكَبُهَا، لَكِنْ أُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ، فَيَكُونُ «خُلِقَ آدَمُ عَلَى صُورَتِهِ»، أَوْ «عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ»^(١)، يَعْنِي: عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْاِنْفِطَارِ:

﴿يَتَأْتِيهَا الْاِنْسَنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٧]. أَيْ: الَّذِي جَعَلَكَ جَعْلًا كَهَذَا، وَهَذَا يَشْمَلُ اعْتِدَالَ الْقَامَةِ وَاعْتِدَالَ الْخَلْقَةِ، فَفَهِمْنَا الْآنَ -وَالْحَمْدُ لِلَّهِ- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ وَجْهٌ حَقِيقِيٌّ، وَأَنَّهُ لَا يُشَبَّهُ أَوْجُهُ الْمَخْلُوقِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إشارةٌ لِلْإِخْلَاصِ، فَعَلَيْكَ أَخِي الْمُسْلِمَ، بِالْإِخْلَاصِ؛ حَتَّى تَنْتَفِعَ بِالْعَمَلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يَعْنِي: لَا تَتَجَاوَزْ عَيْنَاكَ عَنْ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ الْكَرَامِ؛ تَرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ اجْعَلْ نَظْرَكَ إِلَيْهِمْ دَائِمًا، وَصُحْبَتَكَ لَهُمْ دَائِمًا. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَوْ فَارَقَهُمْ لِمَصْلَحَةٍ دِينِيَّةٍ لَمْ يَدْخُلْ هَذَا فِي النَّهْيِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾، يَعْنِي: عَنْ ذِكْرِهِ إِيَّانَا، أَوْ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ؛ فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمُرَادُ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ بِلِسَانِهِ دُونَ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (٥١٧)، وابن خزيمة في التوحيد رقم (٤١)، والآجري في الشريعة رقم (٧٢٥)، والدارقطني في الصفات رقم (٤٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٦٤٠)، وغيرهم، وصححه ابن راهويه وأحمد كما في فتح الباري (١٨٣/٥)، وأعله ابن خزيمة في التوحيد (٨٧/١) بهذا اللفظ. وانتصر شيخ الإسلام ابن تيمية لتصحيح ابن راهويه وأحمد، انظر: بيان تلبيس الجهمية (٦/٣٥٥).

قلبه، وعلى الثاني يكون المراد الرجل الذي أغفل الله قلبه عن القرآن، فلم يرفع به رأساً، ولم ير في مخالفته بأساً!

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أي: ما تهواه نفسه.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾، أي: شأنه. ﴿فُرْطًا﴾، أي: مُنْفَرِطًا عليه، ضائعاً، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء. وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تُنزع البركة من أعماله وأوقاته، حتى يكون أمره فُرْطًا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئاً، ولكن لو كان أمره مع الله؛ لحصلت له البركة في جميع أعماله.



الآيتان (٢٩ ، ٣٠)

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۲۹﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴿۳۰﴾﴾ إِنَّا لَا نَضْمِغُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ﴾: الخطابُ للرَّسُولِ ﷺ، أي: قُلْهَا مُعَلِّنًا ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، لا مِنْ غَيْرِهِ، فلا تَطْلُبُوا الْحَقَّ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾: والأمر في قوله: ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾ للتهديد وليس للإباحة، بل هو للتهديد، كما يهدد الإنسان غيره، فيقول: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَافْعَلْ كَذَا. ويدلُّ عليه قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّا آتَيْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَآتَيْنَاكَ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نَشَاءُ مِنْ أَعْيُنِنَا﴾. فلو كان الكفر بالإباحة لكان الكفر بغير شيء، بل الكفر بالله تعالى، وهو كفرٌ عظيمٌ. وعنه قوله: ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾، يعني: مَنْ كَفَرَ فَلَهُ النَّارُ قَدْ أُعِدَّتْ. وقوله: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ المراد به الكافرون. والدليل على هذا قوله: ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل الكفر يُسَمَّى ظُلْمًا؟

فالجواب: نعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].
ولا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أَوْ جَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَأَمَدَّهُ
وَأَعَدَّهُ.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾، أي: بأهل النار. ﴿سُرَادُفُهَا﴾، أي: ما حولها، يعني: أَنَّ النَّارَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِمْ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْرُوا عَنْهَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، يعني: أَنَّ أَهْلَ النَّارِ إِذَا عَطِشُوا عَطِشًا شَدِيدًا؛ وَذَلِكَ بِأَكْلِ الزَّقُّومِ، أَوْ بغيرِ ذَلِكَ أَغِيثُوا بِهَذَا الْمَاءِ. ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾: يَكُونُ كَعَكْرِ الزَّيْتِ، يَعْنِي: ثَقُلَهُ الْحَاضِرُ فِي أَسْفَلِهِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَنْظَرٌ كَرِيهٌ، وَلَا تَقْبَلُهُ النَّفُوسُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۖ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧]، أي: كَالصَّدِيدِ يَتَجَرَّعُهُ، وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ.

﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾: إِذَا قَرَّبَ مِنْهَا شَوَاهَا، وَتَسَاقَطَتْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- مِنْ شِدَّةِ فَيْحِ هَذَا الْمَاءِ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى أَمْعَائِهِمْ قَطَعَهَا، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [حمد: ١٥]. وَمَا أَعْظَمَ الْوَجَعَ وَالْأَلَمَ فِيمَنْ تُقَطَّعُ أَمْعَاؤُهُ مِنَ الدَّخْلِ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ تُقَطَّعُ وَتُعَادُ كَالْجُلُودِ: ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. اللَّهُ أَكْبَرُ! سُبْحَانَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ! وَبِلَحْظَةٍ يَكُونُ هَذَا الشَّيْءُ مُتَتَابِعًا، كَلَّمَا نَضِجَتْ بُدُلُوا، وَكَلَّمَا تَقَطَّعَتِ الْأَمْعَاءُ، فَإِنَّهَا تُوَصَّلُ بِسُرْعَةٍ.

قوله: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾: هَذَا قَدْحٌ وَدَمٌ لِهَذَا الشَّرَابِ، وَ(بِئْسَ) فِعْلٌ مَاضٍ؛ لِإِنْشَاءِ الدَّمِّ.

قوله: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: وَقَبِحَ مُرْتَفَقُهَا وَالْإِرْتِفَاقُ بِهَا. وَالْمُرْتَفَقُ: مَا يُرْتَفَقُ بِهِ الْإِنْسَانُ؛ قَدْ يَكُونُ حَسَنًا، وَقَدْ يَكُونُ سَيِّئًا، فِيهِ الْجَنَّةُ ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. وَفِي النَّارِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

هذا من أسلوب القرآن، فإنَّ الله إذا ذَكَرَ أهل النَّارِ ذَكَرَ أهلَ الْجَنَّةِ، وهذا من معنى قوله: ﴿مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]. أي: تُثَنَّى فيه المعاني والأحوال والأوصاف؛ ليكون الإنسان جامعاً بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: قد سبق الكلام في معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، ولم يقل: «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ»، ولكن قال تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء، وهو أنهم أحسنوا العمل، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. هذا من الوجه المعنوي، ومن الوجه اللفظي: أن تكون رؤوس الآية متوافقة ومتطابقة؛ لأنه لو قال: «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ»، لاختلفت رؤوس الآيات.

وبماذا يكون الإحسان في العمل؟ يكون بأمرين:

١ - الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

٢ - المتابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من الحثِّ

على إحسان العمل.



الآية (٣١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: المشار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿جَنَّاتُ﴾: جَمْعُ جَنَّةٍ، وهي الدَّارُ التي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ؛ فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ!

﴿عَدْنٍ﴾، بمعنى: الإقامَةِ، أي: جَنَّاتُ إقامَةٍ لا يَبْغُونَ عنها حَوْلًا، أي: تَحْوِلًا عنها، وَمِنْ تَمَامِ النِّعَمِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لا يَرى أَنَّ أَحَدًا أَنْعَمَ مِنْهُ، وَمِنْ تَمَامِ الشَّقَاءِ لِأَهْلِ النَّارِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لا يَرى أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ؛ أَهْلُ الْجَنَّةِ، لا يَرَوْنَ أَنَّ أَحَدًا أَنْعَمَ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لو رَأَوْا ذَلِكَ لَتَنَعَّصَ نَعِيمُهُمْ، حيثَ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ أَقَلُّ.

﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: الْأَنْهَارُ: جَمْعُ نَهْرٍ، وهي أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ أَلَىٰ وَعِدِ الْمُنْفِقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهنا قال: ﴿مِنْ تَحْتِهِمْ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، وفي الثالثة: ﴿تَحْتَهَا﴾، والمعنى واحد؛ لأنهم إذا كانت الأنهار تجري تحت أشجارها وقصورها، فهي تجري تحت سُكَّانِها.

قوله تعالى: ﴿يُحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾:

﴿يُحْلَوْنَ فِيهَا﴾، أي: الجَنَآتُ.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾: قال بعضهم: إِنَّ ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة؛ لقول الله تعالى: ﴿رَحَلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]. فـ﴿مِنْ﴾ زائدة. ولكن هذا القول ضعيف؛ لأنَّ (مِنْ) لا تُزَادُ في الإثبات، كما قال (ابنُ مالكٍ) رَحِمَهُ اللهُ فِي الْأَلْفِيَّةِ:

وَزَيْدٌ فِي نَفْيٍ وَشَبَّهَ فَجَرٌّ نَكِرَةً كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرٍّ^(١)

وعلى هذا؛ فإمَّا أَنْ تكونَ للتَّبَعِيضِ، أي: يُحْلَوْنَ فيها بعضُ أَسَاوِرَ، أي: يُحْلَى كُلُّ واحدٍ منهم شيئًا من هذه الأَسَاوِرِ، وحينئذٍ لا يكونُ إشكالٌ، وإمَّا أَنْ تكونَ لِلْبَيَانِ، أي: بيانٌ ما يُحْلَوْنَ، وهو أَسَاوِرٌ وليس قَلَائِدَ أو خُرُوصًا مثلاً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فهي بَيَانِيَّةٌ، أي: لبيانِ الأَسَاوِرِ أَنَّهَا مِنْ ذَهَبٍ، ولكن لا تَحْسَبُوا أَنَّ الذَّهَبَ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ كَالذَّهَبِ الَّذِي فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا عَظِيمًا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢). ولو كان كَذَهَبِ الدُّنْيَا، لكان العَيْنُ رَأَتْهُ.

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٣٥).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبِسُونَ ثِيَابًا خَضْرَاءَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾:

السُّنْدُسُ: ما رَقَّ مِنَ الدِّيَابِجِ. وَالْإِسْتَبْرَقُ: ما غُلِظَ منه.

وقوله: ﴿خَضْرَاءَ﴾: خَصَّهَا بِاللَّوْنِ الْأَخْضَرِ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ مَا يَكُونُ رَاحَةً لِلْعَيْنِ؛
ففيه جمالٌ، وفيه راحةٌ لِلْعَيْنِ.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، أي: حَالُ
كونهم مُتَّكِئِينَ فيها. وَالْإِتِّكَاءُ يَدُلُّ عَلَى رَاحَةِ النَّفْسِ وَعَلَى الطَّمَأْنِينَةِ.

قوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: جَمْعُ أَرِيكَةٍ. وَالْأَرِيكَةُ: نَوْعٌ مِنَ الْمُرْتَفِقِ الَّذِي يُرْتَفَقُ فِيهِ.
وقيل: إِنَّ الْأَرِيكَةَ سَرِيرٌ فِي الْحَيْمَةِ الصَّغِيرَةِ الْمُعْطَاةِ بِالثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ، تُشَبَّهُ مَا يُسَمُّونَهُ
بِالْكُؤُخِ.

قال الله تعالى: ﴿نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: هَذَا مَدْحٌ لِهَذِهِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ
نَعِيمٍ، ففِيهَا الثَّنَاءُ عَلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ بِأَمْرَيْنِ: بِأَنَّهَا ﴿نَعَمَ الثَّوَابُ﴾، وَأَنَّهَا ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾،
قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].



الآيات (٣٢ - ٣٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٢﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٣﴾ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٤﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٥﴾ ۝ ﴾

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ﴾، يعني: اجعل وصيِّر.

﴿لَهُمْ﴾، أي: للكفار؛ قریش وغيرهم.

﴿مَثَلًا﴾: مفعول «اضرب»، وبين المثل بقوله: ﴿رَجُلَيْنِ﴾، وعلى هذا يكون «رَجُلَيْنِ» عطف بيان، وتفصيلاً للمثل.

قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾: أَغْلَبُ ما في الجَنَّتَيْنِ العَنَبُ، وأطرافُ الجَنَّتَيْنِ النَّخِيلُ، وما بينهما زَرْعٌ؛ ففيهما الفاكهة، والغذاء من الحبِّ وثمر النَّخْلِ.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا﴾: ولم يقل «آتتا» أَكْلُهَا؛ لأنَّه يجوزُ مراعاةُ اللَّفْظِ ومراعاةُ المعنى في «كَلَّا»، وقد اجتمع ذلك في قول الشاعر:

كِلاَهُمَا حِينَ جَدَّ الْجَرْيُ بَيْنَهُمَا قَدْ أَقْلَعَا وَكِلاَ أَنْفَيْهِمَا رَابِي^(١)

يشير إلى فَرَسَيْنِ تَسَابَقَا، فيقول: كِلاَهُمَا، أي: كِلاَ الْفَرَسَيْنِ.

«حِينَ جَدَّ الْجَرْيُ بَيْنَهُمَا»، أي: الْمُسَابَقَةُ. «قَدْ أَقْلَعَا»، أي: تَوَقَّفَا عَنِ الْمَجَارَاةِ. و«رَابِي»، أي: مُتَنَفِّخٌ. فقد قال: «قَدْ أَقْلَعَا»، ولم يَقُلْ: «قَدْ أَقْلَعَ». وقال: «رَابِي»، ولم يَقُلْ: «رَابِيَان»؛ ففي البيتِ مراعاةُ المعنى ومراعاةُ اللَّفْظِ، وهنا ﴿ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا﴾ مراعاةُ اللَّفْظِ.

قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾، أي: ولم تُنْقِصْ.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾: كان خِلَالَ الْجَنَّتَيْنِ نَهْرٌ مِنَ الْمَاءِ يَجْرِي بِقُوَّةٍ، فكان في الْجَنَّتَيْنِ كُلِّ مُقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ: أَعْنَابٌ، وَنَخِيلٌ، وَزَرْعٌ، ثُمَّ بَيْنَهُمَا هَذَا النَّهْرُ الْمَطْرُودُ.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾، أي: إِنَّ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ، كَأَنَّ لَهُ ثَمَرًا زَائِدًا عَلَى الْجَنَّتَيْنِ، أَوْ ثَمَرًا كَثِيرًا مِنَ الْجَنَّتَيْنِ.

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾: وهما يَتَجَاذَبَانِ الْكَلَامَ.

قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: افْتَخَرَ عَلَيْهِ بِشَيْئَيْنِ:

(١) البيت ينسب للفرزدق، وغير موجود في المطبوع من ديوانه.

وانظره في: الخصائص لابن جني (٣/٣١٧)، وخزانة الأدب للبغدادى (٣/٩٦)، والمعجم

المفصل في شواهد العربية (١/٣٦١).

١ - بكثرة المال.

٢ - العشيرة والقبيلة.

فافتخرَ عليه بالغنى والحسب، يقول ذلك افتخارًا، وليس تحدُّثًا بِنِعْمَةِ اللهِ،
بدليل العقوبة التي حصلت عليه.



الآيتان (٣٥، ٣٦)

• • ❦ • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾﴾.

• • ❦ • •

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾: ذَكَرْتُ بلفظ الإفراد مع أَنَّهُ قَالَ: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾؛ فإِذَا أَن يُقَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمُفْرَدِ الْجِنْسُ، وَإِنَّمَا أَن يُرَادَ إِحْدَى الْجَنَّتَيْنِ، وَتَكُونُ الْعُظْمَى هِيَ الَّتِي دَخَلَهَا.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾: هَذِهِ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، يَعْنِي: الْحَالُ أَنَّهُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَبِإِذَا ظَلَمَ نَفْسَهُ؟ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالْكَفْرِ، كَمَا سَيَتَبَيَّنُّ.

قَالَ: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، يَعْنِي: مَا أَظُنُّ أَن تَفْنَى وَتَزُولُ أَبَدًا! أُعْجِبَ بِهَا وَبِهَا فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى نَسِيَ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَبْقَى لِأَحَدٍ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلَهُ:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾: فَأَنكَرَ الْبَعْثَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ جَنَّتُهُ لَا تَبِيدُ، فَهُوَ يَقُولُ: لَا بَعْثَ، وَإِنَّمَا هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا!

﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾، يَعْنِي: عَلَىٰ فَرَضٍ أَن تَقُومَ السَّاعَةُ وَأُرَدَّ إِلَى اللَّهِ.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، أي: مَرَجِعًا. فكأنه يقول: بما أن الله أَنْعَمَ عَلَيَّ بالدُّنْيَا، فلا بدَّ أن يُنْعِمَ عَلَيَّ بِالْآخِرَةِ، وهذا قياسٌ فاسدٌ؛ لأنَّه لا يُلْزَمُ مِنَ التَّنْعِيمِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُنْعِمَ الْإِنْسَانُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا مِنْ كَوْنِ الْإِنْسَانِ لَا يُنْعَمُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا يُنْعَمَ فِي الْآخِرَةِ، لَا تَلَازِمَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، بَلْ إِنَّ الْكَفَّارَ يُنْعَمُونَ فِي الدُّنْيَا وَتُعَجَّلُ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِم الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ يُعَذَّبُونَ! وهذا كقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ): ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩-٥٠]. هذا مِثْلُ هَذَا.



• • • • •

• • • • •

﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾؟! وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ مُنْكَرَ الْبَعْثِ كَافِرٌ وَلَا شَكَّ فِي هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَبِىَّ وَرَبِّ لَبَعْنٌ ثُمَّ لَنُبْعَثَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّا﴾ أصلها: «لكن أنا»، وحذفت الهمزة تخفيفاً، وأدغمت النون الساكنة الأولى بالنون الثانية المفتوحة فصارت «لكننا»، وتكتب بالالف خطأ، وأما التلاوة ففيها قراءتان؛ إحداهما: بالالف وصلًا ووقفًا. والثانية: بالالف وقفًا، وبحذفها وصلًا.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، أي: هو الله ربِّي، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وعلى هذا فتكون ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، يعني: الشأن أن الله تعالى ربِّي.

و﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾: وهذا كقول ابن آدم لأخيه (قابيل): ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. يعني: أنت كفرت، ولكني أنا أعتر بلياني وأؤمن بالله.



الآيات (٣٩ - ٤١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾
 إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّكَ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
 عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ
 طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾، يعني: هَلَّا ﴿ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾، أي:
 حِينَ دَخُولِكَ إِيَّاهَا ﴿ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾؛ حَتَّى تَجْعَلَ الْأَمْرَ مُفَوَّضًا
 إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ فيها وَجْهَان:

- ١- أَنْ (ما) اسمٌ موصولٌ، خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ محذوفٌ تقديره: «هذا ما شاء الله».
- ٢- أَنْ (ما) شَرْطِيَّةٌ، و﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾: فِعْلٌ الشَّرْطِ، وجوابه محذوفٌ، والتقديرُ:
 «ما شاء الله كان».

وقوله: ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾، أي: لَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِاللَّهِ، وهذا يَعْنِي
 تَفْوِضَ الْقُوَّةِ لِلَّهِ، يعني: فهو الذي له الْقُوَّةُ مُطْلَقًا؛ الْقُوَّةُ جَمِيعًا، فهذه الْجَنَّةُ ما صارت
 بِقُوَّتِكَ أَنْتَ، وَلَا بِمَشِيئَتِكَ أَنْتَ، وَلَكِنْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. وَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا
 أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ أَنْ يَقُولَ: «ما شاء الله، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ حَتَّى يُفَوِّضَ الْأَمْرَ

إلى الله عَزَّجَلَّ، لا إلى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ. وقد جاء في الأثر أَنَّ مَنْ قال ذلك في شيء يُعْجِبُهُ مِنْ مَالِهِ، فَإِنَّهُ لَن يَرى فِيهِ مَكْرُوهًا^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾:

﴿إِنْ﴾ شَرْطِيَّةٌ. وَفِعْلُ الشَّرْطِ (تَرى)، و(النَّوْنُ) لِلْوِقَايَةِ، و(الياءُ) مَحْذُوفَةٌ؛ لِلتَّخْفِيفِ، وَالْأَصْلُ «تَرَنِ».

﴿أَنَا﴾: ضَمِيرُ فَضْلٍ، لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ.

﴿أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾، أَي: إِنْ احْتَقَرْتَنِي؛ لَكُونِي أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَأَقَلُّ مِنْكَ وَلَدًا، وَلَسْتُ مِثْلَكَ فِي عِزَّةِ النَّفَرِ.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَى رَبِّي﴾: هذه الجملة هي جوابُ الشَّرْطِ: وهل هي للترجِّي أم للتَّوَقُّعِ؟ الجوابُ: فيها احتمالان:

الأوَّلُ: أَنَّهُا لِلتَّرَجُّيِ، وَأَنَّ هَذَا دَعَا أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِهِ، وَأَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ احْتَقَرَهُ وَاسْتَذَلَّهُ، فَدَعَا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا فَعَلَ بِهِ مِنَ الظُّلْمِ. وَلَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى ظَالِمٍ بِمِثْلِ مَا ظَلَمَهُ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْرِفَ هَذَا الْمُفْتَخِرُ رَبَّهُ، وَيَدْعَ الْإِعْجَابَ بِالْمَالِ، وَهَذَا مِنْ مَصْلَحَتِهِ. فَكَأَنَّهُ دَعَا أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ مَا يَسْتَأْثِرُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُثْلِفَ هَذِهِ الْجَنَّةَ؛ حَتَّى يَعْرِفَ هَذَا الَّذِي افْتَحَرَ بِجَنَّتِهِ وَعِزَّةِ نَفَرِهِ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ اللهِ. فَكَأَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ بِمَا يَضُرُّهُ لِمَصْلَحَةٍ هِيَ

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً في أهل ومال وولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيها آفةً دون الموت»، وقرأ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. أخرجه أبو يعلى في مسنده كما في المطالب العالية رقم (٣٦٥٥)، والطبراني في المعجم الأوسط رقم (٥٩٩٥)، والصغير رقم (٥٨٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (٣٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٠٦٠).

أَعْظَمُ. فَكَوْنُ الْإِنْسَانِ يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَيَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَفْخَرَ بِمَا لَهُ وَيَعْتَرَّ بِهِ، هَذَا إِذَا جَعَلْنَا (عسى) لِلتَّرَجِّي.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ (عسى) لِلتَّوَقُّعِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تَرَى هَذَا، فَإِنَّهُ يُتَوَقَّعُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُزِيلُ عَنِّي مَا عِبْتَنِي بِهِ، وَيُزِيلُ عَنْكَ مَا تَفْتَخِرُ بِهِ، وَإِيَّاكَ كَانَ، فَالْأَمْرُ وَقَعَ؛ إِمَّا اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ، وَإِمَّا تَحْقِيقًا لِتَوَقُّعِهِ.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: وَالْمُرَادُ بِالْحُسْبَانِ هُنَا: مَا يُدَمِّرُهَا مِنْ صَوَاعِقٍ أَوْ غَيْرِهَا.

وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: خَصَّ السَّمَاءَ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ مِنَ الْأَرْضِ قَدْ يُدَافَعُ، يَعْنِي: لَوْ نَفَرَضْنَا أَنَّهُ جَاءَتْ أَمْطَارٌ وَسُيُولٌ جَارِفَةٌ، أَوْ نِيرَانٌ مُحْرِقَةٌ تَسْعَى وَتَحْرِقُ مَا أَمَامَهَا، يُمَكِّنُ أَنْ تُدَافَعَ، لَكِنْ مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ يَصْعَبُ دَفْعُهُ أَوْ يَتَعَذَّرُ.

﴿فَيُصْبِحُ صَعِيدًا﴾، أَي: تَصْبِحُ لَا نَبَاتَ فِيهَا.

﴿زَلَقًا﴾، يَعْنِي: قَدْ غَمَرَتْهَا الْمِاءُ.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾: فَلَا يَوْجَدُ فِيهَا مَاءٌ.

و﴿غَوْرًا﴾ بِمَعْنَى: غَائِرٌ. فَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: اسْمُ الْفَاعِلِ.

فَدَعَا دَعْوَةً يَكُونُ فِيهَا زَوَالٌ هَذِهِ الْجَنَّةِ؛ إِمَّا بِهَاءٍ يُغْرِقُهَا حَتَّى تُصْبِحَ ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، وَإِمَّا بِغَوْرٍ لَا سُقْيَا مَعَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ تَدْمِيرٌ وَخَرَابٌ؛ فَالْفَيْضَانَاتُ تُدَمِّرُ الْمَحْصُولَ، وَغَوْرُ الْمَاءِ -حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ أَنْ يَطْلُبَهُ؛ لِبُعْدِهِ فِي قَاعِ الْأَرْضِ أَيْضًا- يُدَمِّرُ الْمَحْصُولَ: فَمَاذَا كَانَ بَعْدَ هَذَا الدُّعَاءِ أَوْ هَذَا التَّوَقُّعِ؟!

الآيات (٤٢ - ٤٤)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾، أي: بشمّر صاحبِ الجنتين، فهلكَتِ الجنتان. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ مِنَ النَّدَمِ؛ وذلك أَنَّ الإنسانَ إِذَا نَدِمَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا قَدْ حَصَلَ.

﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾: وهذا يدلُّ على أَنَّهُ أَنْفَقَ فِيهَا شَيْئًا كَثِيرًا.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، أي: هَامِدَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا. و﴿عُرُوشِهَا﴾: جَمْعُ عَرْشٍ أَوْ عَرِيشٍ، وهو ما يُوضَعُ لَتُمَدَّدَ عَلَيْهِ أَغْصَانُ الْأَعْنَابِ وَغَيْرِهَا.

﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾: وَلَكِنَّ النَّدَمَ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ لَا يَنْفَعُ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ مَنْ سَمِعَ الْقِصَّةَ، أَمَّا مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَلَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ فَاتِ الْأَوَانُ.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾﴾:

فالذي كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ، وَيَقُولُ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ لَمْ تَمْنَعْهُ

فُتِنَتْهُ مِنْ عَقُوبَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَّصِرْ هُوَ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- كَفَرَ وَحَاوَرَ الْمُؤْمِنَ؛ فَعُوقِبَ بِهَذِهِ الْعَقُوبَةِ.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ﴾ فيها قراءتان:

١- الْوَلَايَةُ.

٢- الْوَلَايَةُ.

فالْوَلَايَةُ: بمعنى النُّصْرَةِ، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

[الأنفال: ٧٢].

وَالْوَلَايَةُ: بمعنى الْمُلْكِ وَالسُّلْطَةِ، فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا نُصْرَةَ وَلَا مُلْكَ إِلَّا لِلَّهِ الْحَقِّ. وَإِذَا كَانَ لَيْسَ هُنَاكَ انتصارٌ وَلَا سُلْطَانٌ إِلَّا لِلَّهِ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ دُونَهُ لَا يُفِيدُ صَاحِبَهُ شَيْئًا.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾:

﴿هُوَ﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ. ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾: مِنْ غَيْرِهِ، إِذَا أَثَابَ عَنِ الْعَمَلِ فَهُوَ ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾؛ لِأَنَّ غَيْرَ اللَّهِ إِنْ أَثَابَ، فَإِنَّهُ يُثِيبُ عَلَى الْعَمَلِ بِمِثْلِهِ، وَإِنْ زَادَ، فَإِنَّهُ يَزِيدُ شَيْئًا يَسِيرًا. أَمَّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ يُثِيبُ الْعَمَلَ بَعَشْرَةَ أَمْثَالِهِ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

كَذَلِكَ هُوَ ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَاقِبَتُهُ نَصْرَ اللَّهِ وَتَوَلَّيْهُ، فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؛ جَمِيعُ الْعَوَاقِبِ الَّتِي تَكُونُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى يَدِ الْبَشَرِ تَزُولُ، لَكِنَّ الْعَاقِبَةَ الَّتِي عِنْدَ اللَّهِ لَا تَزُولُ.

إِنَّ هَذَا الْمَثَلَ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ: هل هو مَثَلٌ حَقِيقِيٌّ أَوْ تَقْدِيرِيٌّ؟
يعني: هل هذا الشَّيْءُ واقِعٌ، أَوْ أَنَّهُ شَيْءٌ مُقَدَّرٌ؟

الجوابُ: مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَثَلٌ تَقْدِيرِيٌّ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]. وكَقَوْلِهِ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]. وما شَابَهُ ذَلِكَ، فَيَكُونُ هَذَا مَثَلًا تَقْدِيرِيًّا وَلَيْسَ واقِعِيًّا، وَلَكِنَّ السِّيَاقَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَحَاوِرَةِ وَالْأَخْذِ وَالرَّدِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَثَلٌ حَقِيقِيٌّ واقِعٌ، فَهَمَا رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي: لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ.



الآيتان (٤٥، ٤٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ﴿٤٥﴾ أَلَمَّا الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾. ﴿٤٦﴾

• • • • •

ثُمَّ صَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلًا آخَرَ، فَقَالَ:

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ﴿٤٥﴾. ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾: وهو المطر، ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾، يعني: أَنَّ الرِّياضَ صارت مُخْتَلِطَةً بِأَنْوَاعِ النَّبَاتِ الْمُتَنَوِّعِ بِأَزْهَارِهِ وَأَوْرَاقِهِ وَأَشْجَارِهِ، كما يُشَاهَدُ فِي وَقْتِ الرَّبِيعِ: كيف تكونُ الْأَرْضُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ! كَأَنَّهُ وَثِيٌّ مِنْ أَحْسَنِ الْوَشِيَّاتِ، إِذَا اخْتَلَطَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَمِنْ كُلِّ جِنْسٍ. ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾، يعني: هَذَا النَّبَاتُ الْمُخْتَلِفُ الْمُتَنَوِّعُ.

﴿ هَشِيمًا ﴾: هَامِدًا.

﴿ تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾، أَي: تَحْمِلُهُ. فَهَذَا هُوَ ﴿ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾. الْآنَ الدُّنْيَا تَزْدَهَرُ لِلْإِنْسَانِ وَتَزْهَوُ لَهُ، وَإِذَا بَهَا تُحْمَدُ بِمَوْتِهِ أَوْ فَقْدِهَا، لَا بَدَّ مِنْ هَذَا؛ إِمَّا أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ، أَوْ أَنْ يَفْقِدَ الدُّنْيَا. هَذَا مَثَلٌ مُوَافِقٌ تَمَامًا.

وقد ضَرَبَ اللهُ تعالى هذا النوعَ مِنَ الأمثالِ في عِدَّةِ سُورٍ مِنَ القرآنِ الكريمِ؛
 حَتَّى لَا نَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَلَا نَتَمَسَّكَ بِهَا، وَالْعَجَبُ أَنَّنَا مُغْتَرُّونَ بِهَا وَمُتَمَسِّكُونَ بِهَا، مَعَ
 أَنَّ أَكْدَارَهَا وَهُومَهَا وَغُومَهَا أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ صَفْوِهَا وَرَاحَتِهَا! وَالشَّاعِرُ الَّذِي
 قَالَ:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نَسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرٌّ^(١)

لَا يَرِيدُ - كَمَا يَظْهَرُ لَنَا - الْمُعَادَلَةَ، لَكِنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ مَا مِنْ سُرُورٍ إِلَّا وَمَعَهُ مُسَاءَةٌ!
 وَمَا مِنْ مُسَاءَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا سُرُورٌ! لَكِنَّ صَفْوَهَا أَقْلُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَكْدَارِهَا، حَتَّى الْمُنْعَمُونَ
 بِهَا لَيْسُوا مُطْمَئِنِّينَ بِهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْآخَرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ لَذَّائِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ^(٢)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنَدِرًا﴾: مَا وُجِدَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعْدَامِهِ،
 وَمَا عُدِمَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِيجَادِهِ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْإِيجَادِ وَالْعَدَمِ إِلَّا كَلِمَةٌ (كُنْ)، قَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مُقْنَدِرًا﴾ مُبَالِغَةٌ فِي الْقُدْرَةِ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مُقَارِنًا بَيْنَ مَا يَبْقَى
 وَمَا لَا يَبْقَى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
 أَمَلًا﴾ (٤٦).

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك
 (٣٤٦/١).

(٢) البيت في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨)،
 غير منسوب.

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ﴾: من أي نوع، سواء كان من العُروضِ أو النُّقودِ، أو الآدميين، أو البهائم.

﴿وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ولا يَنْفَعُ الإنسانَ في الآخرةِ إِلَّا ما قَدَّمَ منها. وذكرَ البنين دون البنات؛ لأنَّه جَرَتِ العادةُ أَنَّهُمْ لا يَفْتَخِرُونَ إِلَّا بالبنين، والبناتُ في الجاهليَّةِ مَهِيناتٌ بأعْظَمِ المَهَانَةِ، كما قال الله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ﴾. أي: صار وَجْهُهُ مُسْوَدًّا، وقلْبُهُ مُمْتَلِئًا غَيْظًا. ﴿يَنْزَوِي مِنَ الْقَوْمِ﴾، يعني: يَحْتَبِيئُ منهم، ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، ثم يَقْدَرُ في نَفْسِهِ: ﴿أَيْمِسْكُهُ عَلَىٰ هُوٍ أَرَّ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]. بَقِيَ قِسْمٌ ثالثٌ: وهو أن يُمَسِّكَهُ على عِزٍّ، وهذا عندهم غيرُ مُمَكِّنٍ، ليس عندهم إِلَّا أَحَدُ أَمْرَيْنِ:

١- إمَّا أن يُمَسِّكَهُ على هُونٍ.

٢- يَدُسُّهُ في التُّرابِ، أي: يَدْفِنُهُ فيه، وهذا هو الواؤد، قال الله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: إِنَّ الإنسانَ يَتَجَمَّلُ به، يعني: يَتَجَمَّلُ أنَّ عنده أولادًا. قَدَّرَ نَفْسَكَ أَنَّكَ صاحبُ قَرَى، يعني: أَنَّكَ مِضْيَافٌ وعندك شبابٌ عشرة، يَسْتَقْبِلُونَ الضُّيُوفَ، تَحِدُّ أَنَّ هذا في غايةِ ما يكونُ مِنَ السُّرُورِ، هذه مِنَ الزَّيْنَةِ، كذلك قَدَّرَ نَفْسَكَ أَنَّكَ تَسِيرُ على فَرَسٍ، وَحَوْلَكَ هؤلاءُ الشَّبَابُ يَحْفُوقُونَكَ مِنَ اليمينِ وَمِنَ الشَّمالِ، وَمِنَ الحَلْفِ وَمِنَ الأمامِ، تَحِدُّ شَيْئًا عَظِيمًا مِنَ الزَّيْنَةِ، ولكنْ هناك شيءٌ خَيْرٌ مِنْ ذلك.

قال تعالى: ﴿وَالْبَلَقِيَّتُ اللَّصْلِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾:

﴿وَالْبَلَقِيَّتُ اللَّصْلِحَتُ﴾: هي الأَعْمَالُ الصَّالِحَاتُ مِنْ أقوالٍ وأفعالٍ، ومنها:

سُبْحَانَ اللَّهِ! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. ومنها:
الصَّدَقَاتُ، وَالصِّيَامُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، هَذِهِ الْبَاقِيَاتُ
الصَّالِحَاتُ.

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي: أَجْرًا وَمُثُوبَةً.

﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي: خَيْرٌ مَا يُؤْمَلُهُ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ
هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِبَاقِيَاتٍ، أَمَّا الدُّنْيَا فَهِيَ فَانِيَةٌ وَزَائِلَةٌ.



الآية (٤٧)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ﴾﴾

• • ❦ • •

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾، أي: اذكرُ لهم يومَ نُسَيِّرُ الجبالَ، وعلى هذا فإنَّ (يومَ) ظرفٌ، عامِلُهُ محذوفٌ، والتَّقْدِيرُ: اذكرُ ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾، أي: اذكرُ للنَّاسِ هذه الحالَ، وهذا المشهَدُ العظيم.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾، وقد بيَّنَ اللهُ في آيةٍ أخرى أَنَّهُ يُسَيِّرُهَا؛ فتكونُ سَرَابًا ﴿ وَسَيَّرَ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبا: ٢٠]. وتكونُ كالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥]. وذلك بأنَّ اللهَ تعالى يَدُكُّ الأرضَ، وتُصْبِحُ الجبالُ كَثِيبًا مَهِيلًا: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ [الزلزال: ١٤]. ثُمَّ تتطايرُ في الجوّ، هذا معنى «نُسَيِّرُ».

ومن الآياتِ الدَّالَّةِ على هذا المعنى قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة (النمل): ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]. بعضُ النَّاسِ قال: إِنَّ هذه الآيةَ تُعْنِي: دَوْرَانَ الأرضِ؛ فَإِنَّكَ ترى الجبالَ فَتَظُنُّهَا ثَابِتَةً، وَلَكِنَّهَا تَسِيرُ! وهذا غَلَطٌ وقولٌ على اللهِ تعالى بلا عِلْمٍ؛ لأنَّ سِيَاقَ الآيةِ يَأْبَى

ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَخِيرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٧-٨٩]. فالآية واضحة أنها يوم القيامة، وأما زعم هذا الرجل القائل بذلك؛ بأن يوم القيامة تكون الأمور حقائق، وهنا يقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ [النمل: ٨٨]: فلا حُسابان في الآخرة، فهذا غلط أيضاً؛ لأنه إذا كان الله أثبت هذا، فيجب أن نُؤمن به، ولا نُحرِّفه بعقولنا. ثم إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَهْدُلُ كُلُّ مِرْضَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ [الحج: ١-٢]. فإذا قلنا: إن زلزلة الساعة هي قيامها، فقد بين الله أن الناس يراهم الرائي، فيظنُّهم سُكاري، وما هم بسُكاري! وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّ الواجب علينا جميعاً أن نُجْري الآيات على ظاهرها، وأن نعرف السِّياق؛ لأنه يُعيِّن المعنى؛ فكَم من جُملة في سياق يكون لها معنى، ولو كانت في غير هذا السِّياق، لكان لها معنى آخر! ولكنها في هذا السِّياق يكون لها المعنى المناسب لهذا السِّياق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: ظاهرة؛ لأنها تكون قاعاً وصفصفاً، وهي الآن ليست بارزة؛ لأنها مُكَوَّرَةٌ، وأكثرها غير بارز، ثم إنَّ البارز لنا أيضاً كثيرٌ منه مُخْتَفٍ بالجبال، فيومُ القيامة لا جبال، ولا أرض كُروِيَّة، بل تُمدُّ الأرض مدَّ الأديم، قال الله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٣]. فقلوه: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] يدلُّ على أنَّ الأرض الآن غير ممدودة.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾، أي: النَّاسُ. بل إِنَّ الْوَحُوشَ تُحْشَرُ، كما قال الله: ﴿وَإِذَا
 الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. بل جميع الدَّوَابِّ أيضًا، كما قال تعالى في سورة (الأنعام):
 ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ
 شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. فكلُّ شيءٍ يُحْشَرُ؛ ولهذا يقولُ الله هنا:
 ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾، أي: النَّاسُ، وفي الآية الأخرى: ﴿الْوُحُوشُ﴾، وفي الأخيرة: جميعُ
 الدَّوَابِّ.

وقوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾، أي: نَتْرُكُ، ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: كُلُّ النَّاسِ يُحْشَرُونَ؛ إِنَّ مَاتَ
 فِي الْبَرِّ حُشِرَ، فِي الْبَحْرِ حُشِرَ، فِي أَيِّ مَكَانٍ، لَا بَدَّ أَنْ يُحْشَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُجْمَعَ.



الآيتان (٤٨، ٤٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَدُّونَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَعَرِضُوا ﴾، أي: عُرِضَ النَّاسُ.

﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾، أي: على الله.

﴿ صَفًّا ﴾، أي: حال كونهم صَفًّا، بمعنى: صُفُوفًا، فَيُحَاسِبُهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ. أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَخْلُو بِهِ وَحْدَهُ وَيُقَرَّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: عَمِلْتَ كَذَا، وَعَمِلْتَ كَذَا، فَيَقُولُ لَهُ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١). يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُعَاقِبُهُ عَلَيْهَا، وَفِي الدُّنْيَا يَسْتُرُهَا، فَكَمْ مِنْ ذُنُوبٍ لَنَا اقْتَرَفْنَاهَا فِي الْحَقَاءِ؟! كَثِيرَةٌ، سِوَاءٍ كَانَتْ عَمَلِيَّةً فِي الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، أَوْ عَمَلِيَّةً مِنْ عَمَلِ الْقُلُوبِ؛ فَسُوءُ الظَّنِّ موجودٌ، الْحَسَدُ موجودٌ، إِرَادَةُ السُّوءِ

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

للمسلم موجوده، وهو مستور عليه. وأعمال أخرى من أعمال الجوارح، ولكن الله يسترها على العبد. إننا نؤمل - إن شاء الله - أن الذي سترها علينا في الدنيا، أن يغفرها لنا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: يقال لهم ذلك. وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: اللام، وقد، والقسم المقدّر، يعني: والله، لقد جئتمونا ﴿كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ليس معكم مال ولا ثياب، ولا غير ذلك، بل ما فقد منهم يُردُّ إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنهم يُحشرون يوم القيامة «حفاة، عراة، غرلاً»^(١) و(غرلاً): جمع أغرل، وهو الذي لم يُحْتَن، إذا سوف يُعرضون على الله صفاء، ويُقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويُقال أيضًا:

﴿بَلْ زَعَمْتَ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: هذا إضرابُ انتقال؛ فهم يُوبّخون ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، فلا مفرّ لكم. ﴿كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فلا مال لكم ولا أهل. ويوبّخون أيضًا على إنكارهم البعث، فيقال: ﴿بَلْ زَعَمْتَ﴾: في الدنيا، ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، وهذا الزعمُ تبينُ بطلانه، فهو باطل.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ أي: ورّع بين الناس، فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الإنسان ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما كتب فيه لأنهم يعلمون ما قدموه لأنفسهم، وهذا يُشبه قول الله تعالى

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عن اليهود الذين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أُنْيَامًا مَّغْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]،
فَتُحَدِّثُوا وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا
بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني: يعرفون أنهم إذا ماتوا عذبوا، ومن كان يعلم أنه إذا مات
عذب فلن يتمنى الموت أبداً، فهو لاء مشفقون مما في كتاب الله، يعني: يعلمون أنه
مُحتَوٍ عَلَى الْفَضَائِحِ وَالسَّيِّئَاتِ الْعَظِيمَةِ.

وَيَقُولُونَ إِذَا عَلِمُوا: ﴿يُوَلِّتُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

(يا) حَرَفُ نِدَاءٍ (ويلتنا) وهي: الهلاك ولكن كيف تُنادى؟

الجواب: إمَّا أَنْ (يا) لِلتَّنْبِيهِ فَقَطْ، لِأَنَّ النِّدَاءَ يَتَضَمَّنُ الدَّعَاءَ وَالتَّنْبِيهَ، وَإِمَّا
أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُمْ جَعَلُوا وَيَلْتَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَاقِلِ الَّذِي يُوجِّهُ إِلَيْهِ النِّدَاءَ، وَيَكُونُ
التَّقْدِيرُ: «يَا وَيَلْتَنَا احْضُرِي!» لَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَقْرَبُ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ،
وَلِأَنَّهُ أْبْلَغُ.

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ أي شيء لهذا الكتاب؟

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ يعني: أُنْبَتَهَا عَدَدًا، كَأَنَّهُمْ يَتَضَجَّرُونَ
مِنْ هَذَا، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ أي: وَجَدُوا ثَوَابَ مَا عَمِلُوا.

﴿حَاضِرًا﴾ لم يَغِبْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَعَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَمَلِ عَنِ الثَّوَابِ لِأَنَّهُ مِثْلُهُ

بِلا زِيَادَةٍ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وَذَلِكَ لِكَمَالِ عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
فَلَا يَزِيدُ عَلَى مُسِيءٍ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ مُحْسِنٍ حَسَنَةً وَاحِدَةً، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وَهَذِهِ
الآيَةُ ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُنْفِيَةِ عَنِ اللَّهِ، وَأَكْثَرُ الْوَارِدِ فِي الصِّفَاتِ
الصِّفَاتِ الْمُثَبَّتَةِ كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَأَمَّا ذِكْرُ الصِّفَاتِ الْمُنْفِيَةِ فَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ
لِلصِّفَاتِ الْمُثَبَّتَةِ، وَلَا يَتِمُّ الْإِبْيَانُ بِالصِّفَاتِ الْمُنْفِيَةِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ:

الأول: نفي الصفة المنفية.

والثاني: إثبات كمالٍ ضدها.

فالنفي الذي لَمْ يَتَضَمَّنْ كَمَالًا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ، بَلْ لَا بُدَّ فِي
كُلِّ نَفْيٍ نَفَاهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ مَتَضَمِّنًا لِإِثْبَاتِ كَمَالِ الضدِّ، وَالنَّفْيُ إِنْ لَمْ
يَتَضَمَّنْ كَمَالًا فَقَدْ يَكُونُ لَعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِ، أَيْ: قَابِلِيَّةِ الْمَوْصُوفِ لَهُ، وَإِذَا لَمْ يَتَضَمَّنْ
كَمَالًا فَقَدْ يَكُونُ لِعَجْزِ الْمَوْصُوفِ، وَإِذَا كَانَ نَفْيًا مُحْضًا فَهُوَ عَدَمٌ لَا كَمَالَ فِيهِ، وَاللَّهُ
تَعَالَى لَهُ الصِّفَاتُ الْكَامِلَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أَيْ: الْوَصْفُ
الْأَكْمَلُ.

قلنا: إِذَا لَمْ يَتَضَمَّنِ النفي كَمَالًا فَقَدْ يَكُونُ لَعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِ، كَيْفَ ذَلِكَ؟ أَلَسْنَا
نَقُولُ: إِنَّ الْجِدَارَ لَا يَظْلِمُ؟ بَلَى، هَلْ هَذَا كَمَالٌ لِلْجِدَارِ؟ لَا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْجِدَارَ لَا يَقْبَلُ
أَنْ يُوصَفَ بِالظُّلْمِ، وَلَا يُوصَفُ بِالْعَدْلِ، فَلَيْسَ نَفْيُ الظُّلْمِ عَنِ الْجِدَارِ كَمَالًا، وَقَدْ
يَكُونُ النفي إِذَا لَمْ يَتَضَمَّنْ كَمَالًا نَقْصًا لِعَجْزِ الْمَوْصُوفِ بِهِ عَنْهُ، لَوْ أَنَّكَ وَصَفْتَ
شَخْصًا بِأَنَّهُ لَا يَظْلِمُ بِكَوْنِهِ لَا يُجَازِي السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا؛ لِأَنَّهُ رَجُلٌ ضَعِيفٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى
الانتصارِ لِنَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَدْحًا لَهُ.

فالحلّاصة أَنَّ كُلَّ وَصْفٍ وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَهُوَ نَفْيٌ، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْتَقِدَ
مع انتِفَائِهِ ثُبُوتَ كِمَالِ ضِدِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
[الأحقاف: ٣٣]، فعلى هذه القاعدة نفى الله (العِي) وهو العَجْز؛ لثُبُوتِ كِمَالِ ضِدِّ
العَجْزِ وهو القُدْرَةُ، إِذَا: نُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ قُدْرَةٌ لَا يَلْحَقُهَا عَجْزٌ، وَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾
[ق: ٣٨]، أَي: مِنْ تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ، وَذَلِكَ لِكِمَالِ قُدْرَتِهِ جَلَّوَعَلَا.

قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا وَذَلِكَ لِكِمَالِ عَدْلِهِ، لَكِنَّ الْجَهْمِيَّةَ قَالُوا: لَا يَظْلِمُ
لِعَدَمِ إِمْكَانِ الظُّلْمِ فِي حَقِّهِ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَظْلِمَ وَلَكِنَّهُ لَا يَظْلِمُ، قَالُوا: لِأَنَّ
الْحَلْقَ كُلَّهُمْ خَلَقَ اللهُ، مَلِكٌ اللهُ، فَإِذَا كَانُوا مَلَكًا اللهُ فَإِنَّهُ إِذَا عَذَّبَ مُحْسِنًا فَقَدْ عَذَّبَ
مَلِكَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ ظُلْمًا لِأَنَّهُ يَفْعَلُ فِي مَلِكِهِ مَا يَشَاءُ، وَلَكِنْ قَوْلُهُمْ هَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّهُ إِذَا
كَانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَدْ وَعَدَ الْمُحْسِنِينَ بِالثَّوَابِ وَالْمُسِيئِينَ بِالْعَذَابِ، ثُمَّ أَحْسَنَ الْمُحْسِنُ
فَعَذَّبَهُ وَأَسَاءَ الْمُسِيءُ فَأَثَابَهُ فَأَقْلُ مَا يُقَالُ فِيهِ: إِنَّهُ وَحَاشَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْلَفَ وَعْدَهُ.
هَذَا أَقْلُ مَا يُقَالُ، وَهَذَا وَلَا شَكَّ مُنَافٍ لِلْعَدْلِ وَلِلصِّدْقِ، فَنَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ فِي
الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»^(١)، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ
عَلَيْهِ، لَكِنْ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ لِكِمَالِ عَدْلِهِ جَلَّوَعَلَا، إِذَا: نَحْنُ نَقُولُ: لَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَدًا
لِكِمَالِ عَدْلِهِ لَا لِأَنَّ الظُّلْمَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ فِي حَقِّهِ، كَمَا قَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي
ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الآية (٥٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ (إذ) هذه تأتي كثيراً في القرآن، والمعربون يقولون: إنها مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ، والتقدير: اذكر إذ يعني: اذكر هذا للأمة حتى تعتبر به ويتبين به فضيلة بني آدم عند الله.

وقوله: ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ هُم عَالَمٌ غَيْبِيٌّ خَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ، كَمَا أَعْلَمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ مِنْ نُورٍ^(١)، وَأَعْلَمَنَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ خَلَقَ الْجِنَّ مِنْ نَارٍ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الْبَشَرَ مِنْ طِينٍ، إِذَا: الْمَخْلُوقَاتُ الَّتِي نَعْلَمُهَا هِيَ: الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَالْجِنُّ مِنْ نَارٍ، وَالْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ، فَالْمَلَائِكَةُ إِذَا عَالَمٌ غَيْبِيٌّ وَالْإِيمَانُ بِهِمْ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَالْمَلَائِكَةُ عَلَى خِلَافِ الشَّيَاطِينِ كَمَا يَتَبَيَّنُ مِنَ الْآيَةِ، وَهُمْ أَقْدَرُ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَأَطْهَرُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَلَهُمْ مِنَ النُّفُوزِ مَا لَيْسَ لِلشَّيَاطِينِ، فَالشَّيَاطِينُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَلْجُوا إِلَى السَّمَاءِ، بَلْ مَنْ حَاوَلَ أَتْبَعَ بِالشَّهَابِ الْمُحْرِقِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَصْعَدُونَ فِيهَا، فَهُمْ

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ بِمَا وُصِفَ لَكُمْ». أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يَصْعَدُونَ بِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ إِلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى اللَّهِ، وَهُمْ أَيْضًا قَدْ مَلَكُوا السَّمَوَاتِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالْمَلَائِكَةِ إِيْمَانًا لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَتَمَّ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُونَ مِنَ الْعَالَمِ الْمُحْسُوسِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتَيْنِ لَهُ سِتْمَةٌ جَنَاحٍ ^(١) قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ ^(٢) وَهُوَ وَاحِدٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ خَلْقِهِ، وَعَظَمَةِ خَلْقَةِ جِبْرِيلَ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، أحيانًا يَأْتِي جِبْرِيلُ الَّذِي هَذَا وَصْفُهُ وَهَذَا خَلْقُهُ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ تَقْلُبُهُ هَكَذَا بِقُدْرَتِهِ هُوَ، وَلَكِنْ بِقُدْرَةِ خَالِقِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَاللَّهُ أَعْطَاهُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّقْلُبِ وَالتَّكْيِيفِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وقوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: سُجُودٌ تَحِيَّةٌ، وَلَيْسَ سُجُودًا عَلَى الْجَنَّةِ، قَالُوا ذَلِكَ فِرَارًا مِنْ كَوْنِهِ سُجُودًا عَلَى الْجَنَّةِ، لِأَنَّ السُّجُودَ عَلَى الْجَنَّةِ لَا يَصِحُّ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ الْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَنَقُولُ: الْأَصْلُ أَنَّهُ سُجُودٌ عَلَى الْجَنَّةِ، وَإِذَا كَانَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ شِرْكًَا كَمَا أَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَإِذَا وَقَعَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ كَانَ طَاعَةً مِنَ الطَّاعَاتِ، فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمِرَ بِذَبْحِ ابْنِهِ فَامْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ وَشَرَعَ فِي تَنْفِيزِ الذَّبْحِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَبْحِ الْابْنِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ هَذَا امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ صَارَ طَاعَةً، وَلَمَّا تَحَقَّقَ مَرَادُ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْابْتِلَاءِ نُسِخَ الْأَمْرُ وَرُفِعَ الْحَرْجُ، إِذَا: فَالسُّجُودُ لِآدَمَ لَوْلَا أَمْرُ اللَّهِ لَكَانَ شِرْكًَا، لَكِنْ لَمَّا كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَا مَرْئِيَّةً أُخْرَى﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَأَدَمُ: هو أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ طِينٍ وَخَلَقَهُ بِيَدِهِ^(١)، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ شَيْئًا بِيَدِهِ إِلَّا آدَمَ وَجَنَّةَ عَدْنٍ، فَإِنَّهُ خَلَقَهَا بِيَدِهِ وَكَتَبَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ^(٢) جَلَّ وَعَلَا، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ كُلُّهَا كَانَتْ بِيَدِ اللَّهِ، أَمَا غَيْرُ آدَمَ فَيُخْلَقُ بِالْكَلِمَةِ (كُنْ) فَيَكُونُ، وَهُوَ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ بِرَسُولٍ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ لَمَّا اخْتَلَفَ النَّاسُ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أَي: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٣) وَأَدَمُ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ^(٤).

(١) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطَبًا إِبْلِيسَ حِينَ اسْتَكْبَرَ عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ تَعَالَى بِيَدِهِ: ﴿قَالَ تَبَاطَلَسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ كَمَا فِي حَدِيثِ حَاجَّةِ آدَمَ لِمُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلَام- قَوْلُ مُوسَى: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ...» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقَدْرِ، بَابُ حُجَّاجِ آدَمَ وَمُوسَى، رَقْمُ (٢٦٥٢/١٥). وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ...» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، رَقْمُ (٣٣٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مُنْزَلَةً فِيهَا، رَقْمُ (١٩٤)، كِلَاهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) جَاءَ فِي حَدِيثِ حَاجَّةِ آدَمَ لِمُوسَى أَنَّ آدَمَ قَالَ لِمُوسَى: «أَنْتَ مُوسَى اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ...». وَفِي رَوَايَةٍ: «كُتِبَ لَكَ التَّوْرَةُ بِيَدِهِ...» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْقَدْرِ، بَابُ تَحَاجِّ آدَمَ وَمُوسَى عِنْدَ اللَّهِ، رَقْمُ (٦٦١٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقَدْرِ، بَابُ حُجَّاجِ آدَمَ وَمُوسَى، رَقْمُ (٢٦٥٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ قَوْلُهُ ﷺ: «فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، رَقْمُ (٣٣٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مُنْزَلَةً مِنْهَا، رَقْمُ (١٩٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١٧٨/٥)، وَأَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي الْمُسْنَدِ رَقْمُ (٤٨٠)، وَابْنُ بَرَكَةَ فِي مُسْنَدِهِ (٤٢٧/٩)، رَقْمُ (٤٠٣٤)، وَابْنُ جَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ رَقْمُ (٣٦١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَنَبِيُّ كَانَ؟ قَالَ: «نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ». وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْمَشْكَاةِ» رَقْمُ (٥٧٣٧).

فإذا قال قائل: كيف يكون نبيًّا ولا يكون رسولًا؟

الجواب: يكون نبيًّا ولا يكون رسولًا؛ لأنه لم يكن هناك داع إلى الرسالة، فالنَّاس كانوا على مِلَّةٍ واحدةٍ، والبَشَر لم ينتشروا بعد كثيرًا، ولم يُفْتَتُوا في الدنيا كثيرًا، نفر قليل، فكانوا يستنون بأبيهم ويعملون عمله، ولما انتشرت الأمة وكثرت واختلَفوا أرسل الله الرُّسل.

﴿فَسَجَدُوا﴾ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لَمْ يَسْجُدْ. وإِبْلِيسُ: هُوَ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يَسْجُدْ، بَيَّنَّ اللَّهُ سَبَبَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فالجملة استِثْنَائِيَّةٌ لِبَيَانِ حَالِ إِبْلِيسَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ أَي: مِنْ هَذَا الصَّنْفِ وَإِلَّا فَهُوَ أَبُوهُمْ.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أَي: خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ، وَأَصْلُ الْفُسُوقِ الْخُرُوجُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فَسَقَتِ التَّمْرَةُ. إِذَا انْفَرَجَتْ وَانْفَتَحَتْ.

فإذا قال قائل: إن ظاهر القرآن أن إبليس كان من الملائكة؟

فالجواب: لا، ليس ظاهر القرآن؛ لأنه قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، نَعَمْ الْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ تَوَجَّهَ إِلَى إِبْلِيسَ كَمَا قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ لِمَاذَا؟ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ كَانَ -أَي: إِبْلِيسَ- يَأْتِي إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، فَوَجَّهَ الْخُطَابَ إِلَى هَذَا الْمَجْتَمِعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا مِنَ النُّورِ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي خُلِقَ مِنَ النَّارِ، فَرَجَعَ الْمَلَائِكَةُ إِلَى أَصْلِهِمْ وَالشَّيْطَانُ إِلَى أَصْلِهِ، وَهُوَ الْاسْتِكْبَارُ وَالْإِبَاءُ وَالْمَجَادَلَةُ بِالْبَاطِلِ لِأَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَجَادَلَ، مَاذَا قَالَ اللَّهُ؟ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي أَنْ أَسْجُدَ لِوَاحِدٍ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ؟ ثُمَّ عَلَّلَ بَعْلَةً هِيَ عَلَيْهِ قَالَ: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَهَذَا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ مِنَ الطِّينِ أَحْسَنُ مِنَ الْمَخْلُوقِ مِنَ النَّارِ، الْمَخْلُوقُ مِنَ النَّارِ، خُلِقَ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ مُلْتَهَبَةٍ،

فيها علامة الطيش، تجدُ اللَّهَبَ فيها يَروُحُ يَمِينًا وَشِمَالًا، ما لها قاعدةٌ مستقرَّةٌ، ولقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (إغاثة اللّهُفانِ) ^(١) فروقًا كثيرةً بينَ الطَّيْنِ وبين النارِ، ثمَّ على فرضِ أَنه خُلِقَ مِنَ النَّارِ وكانَ خيرًا من آدمَ، أليسَ الأَجْدَرُ بِهِ أَن يَمَثَلَ أَمْرَ الخالقِ؟ بَلَى، لكنَّهُ أَبَى واستَكَبَرَ.

قال اللهُ لَمَّا بَيَّنَّ حَالَ الشَّيْطَانِ: ﴿أَفَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿أَفَتَخَذُونَهُ﴾ الخطابُ يَعودُ لِمَن اتَّخَذَ إبليسَ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ فَعَبَدُوا الشَّيْطَانَ وَتَرَكُوا عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: مَنْ وُلِدُوا مِنْهُ، سُئِلَ بَعْضُ السَّلَفِ -سَأَلَهُ نَاسٌ مِنْ الْمُتَعَمِّقِينَ- فَقَالُوا: هَلْ لِلشَّيْطَانِ زَوْجَةٌ؟ قال: إِنِّي لَمْ أَحْضِرِ الْعَقْدَ. وهذا السُّؤالُ لَا دَاعِيَ لَهُ، نحنُ نُوْمِنُ بِأَنَّ لَهُ ذُرِّيَّةً أَمَّا مِنْ زَوْجَةٍ أَوْ مِنْ غَيْرِ زَوْجَةٍ مَا نَذْري، أليسَ اللهُ قَدْ خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ؟ بَلَى، فيَجُوزُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ ذُرِّيَّةَ إبليسَ مِنْهُ كَمَا خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ.

وهذه المسائلُ -مسائلُ الغَيْبِ- لَا يَنْبَغِي لِلإنسانِ أَنْ يُورِدَ عَلَيْهَا شَيْئًا يَزِيدُ عَلَى مَا جَاءَ فِي النَّصِّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ فَوْقَ مُسْتَوَانَا، نحنُ نُؤْمِنُ بِأَنَّ لِإِبْلِيسَ ذُرِّيَّةً، وَلَكِنْ هَلْ يَلْزَمُنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ لَهُ زَوْجَةً؟
الجواب: لَا يَلْزَمُنَا.

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ١٣٩).

﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ أَي: تَتَوَلَّوْنَهُمْ وتأخُذُونَ بِأَمْرِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ هذا مَحْطُّ الإنكارِ، يعني: كَيْفَ تَتَّخِذُونَ هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ لَكُمْ أَعْدَاءُ؟ هذا مِنْ السَّفَهِ ونَقْصِ الْعَقْلِ ونَقْصِ التَّصَرُّفِ أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ عَدُوَّهُ وَلِيًّا.

﴿يَسْأَلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أَي: يَسْأَلُ هَذَا الْبَدَلَ بَدَلًا لَهُمْ، وَمَا هُوَ الْبَدَلُ الْخَيْرُ؟

الجواب: أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَلِيًّا لَا الشَّيْطَانَ.

وقوله: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا بِمَعْنَى الْكَافِرِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا تَعُمُّ الْكَافِرِينَ وَمَنْ كَانَ ظَلَمَهُمْ دُونَ ظُلْمِ الْكُفْرِ، فَإِنَّ لَهُمْ مِنْ وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ بِقَدْرِ مَا أَعْرَضُوا بِهِ عَنْ وَلَايَةِ الرَّحْمَنِ.



الآيتان (٥١، ٥٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ۝٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾.﴾

• • • • •

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين اتَّخَذَهُم النَّاسُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ بِالْكَوْنِ وَبِالتَّدْبِيرِ، فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَا أَشْهَدُهُم خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَخْلُوقَتَانِ قَبْلَ الشَّيَاطِينِ. ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني: مَا أَشْهَدْتُ بَعْضَهُمْ خَلَقَ بَعْضٍ، فَكَيْفَ تَتَّخِذُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ لَا شَارَكُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا خَلَقُوا شَيْئًا، بَلْ وَلَا شَاهِدُوهُ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِدُونِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ قَوْلُهُ، فَلَوْ قَالَ: إِنَّ السَّمَوَاتِ تَكُونَتْ مِنْ كَذَا وَالْأَرْضُ تَكُونَتْ مِنْ كَذَا. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: الْأَرْضُ قِطْعَةٌ مِنَ الشَّمْسِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَى صِحَّتِهِ.

فإِنَّا نَقُولُ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ مَا أَشْهَدَكَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَنْ نَقْبَلَ مِنْكَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا، إِلَّا إِذَا وَجَدْنَا دَلِيلًا حِسِّيًّا لَا مَنَاصَ لَنَا مِنْهُ، حِينَئِذٍ نَأْخُذُ بِهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ الْأَشْيَاءَ الْمَحْسُوسَةَ.

﴿وَمَا كُنْتُ﴾ الضميرُ في ﴿كُنْتُ﴾ يعودُ إلى الله.

﴿مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أنصارًا ينصرون ديني، لماذا؟ لأنَّ المضللَّ يصرفُ الناسَ عن الدين، فكيف يتخذُ الله المضللِّينَ عَضُدًا، وهو إشارةٌ إلى أنَّه لا ينبغي لك أيُّها الإنسان أن تتخذَ المضللِّينَ عَضُدًا تتصرُّ بهم، لأنهم لَنْ ينفعوك بل سيضرُّونك، إذا: لا تعتمدُ على السفهاء ولا تعتمدُ على أهلِ الأهواء المنحرفة؛ لأنَّه لا يمكنُ أن ينفعوك بل هم يضرُّونك، فإذا كان الله عزَّ وجلَّ لَمْ يتَّخذِ المضللِّينَ عَضُدًا فنحنُ كذلك لا يليقُ بنا أن نتَّخذِ المضللِّينَ عَضُدًا؛ لأنَّهم لا خيرَ فيهم، وفي هذا النهي عن بطانةِ السوء وعن مُرافقةِ أهلِ السوء، وأن يحذَرَ الإنسانُ من جلساءِ السوء.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: اذكرُ يومَ يقولُ: ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ فينادونهم ولا يستجيبون لهم، وهذا يكونُ يومَ القيامةِ، يقالُ لهم: أينَ شركائي الذين كنتم تزعمون؟ نادوا شركائي الذين زعمتُم أنَّهم أولياءُ شفعاءُ.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فهذه الأصنامُ لا تنفعُ أهلها بل تُلقَى هي وعابدوها في النار، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ الموبِقُ هو مكانُ الهلاك، يعني: أننا جعلنا بينهم حائلًا مُهلكًا حيثُ لا يمكنُ أن يذهبوا إلى شركائهم، ولا أن يأتي شركاؤهم إليهم، أرايت لو كان بينك وبين صاحبك خندقٌ من نارٍ، هل يمكنُ أن تذهبَ إليه لتنصره، أو أن يأتي إليك لينصرك؟

الجواب: لا يمكنُ، هؤلاء يجعلُ الله بينهم يومَ القيامةِ ﴿مَّوْبِقًا﴾.



الآيتان (٥٣، ٥٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ ﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ المجرمون يعني: الكافرين، كما قال: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ ﴿ فَظَنُّوا ﴾ أي: أيقنوا: ﴿ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ والظنُّ يأتي بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يُوقِنُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ، وإلا فالظنُّ الذي هو ترجيح أحد الأمرين المشكوك فيهما لا يكفي في الإيمان.

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ يعني: لم يجدوا مكانًا ينصرفون عنها إليه، وهذه الجملة معطوفة على (رأى) وليست داخلية تحت قوله: (ظنوا)، لأنه لو كان داخلًا في الظن لقال: (ولن)، يعني: أنهم لما رأوها وظنوا أنهم مُوَاقِعُوهَا لم يجدوا عنها مَصْرِفًا، أي: مكانًا ينصرفون إليه لِيَسْجُوبَ به منها.

قوله تعالى: ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ يعني: نوَّعْنَا، تصريف الشيء يعني: تنويعه كما قال تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، أي: تنويعها من الجنوب إلى الشمال ومن

الشرق إلى الغرب، إَذَا: ﴿صَرَفْنَا﴾ أي: نَوَّعْنَا في هذا القرآن من كُلِّ مَثَلٍ، وهكذا الواقع، فكلام الله صِدْقٌ، أمثال القرآن تَجِدُهَا مُتَوَّعَةً فتارةً لإثباتِ البَعْثِ، وتارةً لإثباتِ وحدانيَّةِ الله، وتارةً لبيانِ حالِ الدُّنيا، وتارةً لبيانِ حالِ الآخِرَةِ، وتارةً تكونُ مطوَّلةً، وتارةً مختصرةً، فهي أنواعٌ، كُلُّ نَوْعٍ في مكانِهِ مِنَ البلاغةِ والفصاحةِ.

﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَصِنْفٍ، فهذا مَثَلٌ لكذا وهذا مَثَلٌ

لكذا، لماذا؟

الجوابُ: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَذَكَّرَ النَّاسُ وَيَتَعَفَّوْا وَيَعْقِلُوْهَا، ولكن يُوجَدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَتَعَفَّى بِهَذِهِ الْمَثَلِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، ولهذا قَالَ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾، قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ يَقُولُ: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ، وَلَكِنْ فِي هَذَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَى تَخْصِيصِهِ بِالْكَافِرِ، بَلْ نَقُولُ: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ مِنْ حَيْثُ الْإِنْسَانِيَّةُ.

﴿أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾ يَعْنِي: أَكْثَرَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانُ فَلِلْمُؤْمِنِ لَا يَكُونُ مُجَادِلًا، بَلْ يَكُونُ مُسْتَسْلِمًا لِلْحَقِّ وَلَا يُجَادِلُ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أُوتِيَ قَوْمٌ الْجَدَلَ إِلَّا ضَلُّوا»^(١)، وَتَدَبَّرْ حَالَ الصَّحَابَةِ تَجِدُ أَنَّهُمْ مُسْتَسْلِمُونَ غَايَةَ الْاسْتِسْلَامِ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، وَلَا يُجَادِلُونَ وَلَا يَقُولُونَ: لِمَ؟ وَلَمَّا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ وَلَا تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ»^(٢) هَلْ قَالَ الصَّحَابَةُ: لِمَ؟ بَلْ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، مَا جَادَلُوا، وَكَذَلِكَ فِي بَقِيَّةِ الْأَوَامِرِ،

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٤٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٧)،

من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لكنَّ الإنسانَ مِنْ حيثُ هُوَ إنسانٌ أَكْثَرُ شَيْءٍ عِنْدَهُ الْجَدَلُ. إِذَا: إِذَا مَرَّ بِكَ مِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿الْإِنْسَنُ﴾ فَلَا تَحْمِلْهُ عَلَى الْكَافِرِ إِلَّا إِذَا كَانَ السِّيَاقُ يُعَيِّنُ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ السِّيَاقُ يُرَادُّ بِهِ ذَلِكَ، صَارَ هَذَا عَامًّا يُرَادُّ بِهِ الْخَاصُّ، لَكِنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السِّيَاقِ مَا يُعَيِّنُ ذَلِكَ فَاجْعَلْهُ لِلْعُمُومِ، اجْعَلْهُ إِنْسَانًا بِوصفِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ إِذَا غَلَبَ عَلَيْهَا الْإِيْهَانُ اضْمَحَلَّ مَقْتَضَاهَا الْمَخَالِفُ لِلْفِطْرَةِ.

قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَنُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ هَذَا وَقَعَ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَزَوْجَتِهِ فَاطِمَةَ حِينَ جَاءَ إِلَيْهِمَا ذَاتَ لَيْلَةٍ وَوَجَدَهُمَا نَائِمَيْنِ فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ»، قَالَ عَلِيٌّ: «إِنَّ أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ وَلَوْ شَاءَ لَا يَقْظُنَا»، فَانصَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ وَهُوَ يَضْرِبُ عَلَى فَخْذِهِ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَنُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْفُسَهُمَا بِيَدِ اللَّهِ، وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ فِي الْفَرِيضَةِ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»^(٢)، فَعَذَرَ النَّاسِيَّ وَالنَّائِمَ وَهُوَ يَعْلَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُخَبِّرَهُمَا، وَأَرَادَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَدْفَعَ اللَّوْمَ عَنْهُ وَعَنْ زَوْجِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل، رقم (١١٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، ولا يعيد إلا تلك الصلاة، رقم (٥٩٧) لكنه اقتصر على النسيان دون النوم، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨٤) / (٣١٥)، إلا أنه قدم النسيان على النوم، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٥٥، ٥٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَنُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِي وَمَا أَنْذَرُوا هَؤُلَاءِ ۝ ﴾ ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ يعني: ما منع الناس عن الإيمان والاستغفار نقص البيان، فقد ذكر الله أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، وكان الواجب على الإنسان إذا ضربت له الأمثال أن يؤمن، لكنه ما منعهم من الإيمان نقص في البيان، فالأمر والحمد لله بين واضح أتى بها النبي ﷺ بيضاء نقيّة^(١) لكنه العناد.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أي: ما ينتظرون إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلًا.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ يعني: يطلبون مغفرته، فالؤمن كثير الاستغفار

(١) عن العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيَاضِ، لَيْلَهَا كَنَاهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ...» أخرجه الإمام أحمد (١٢٦/٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٧/١)، وصححه الألباني في ظلال الجنة.

لِرَبِّهِ، وَالْكَافِرُ إِذَا آمَنَ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ بِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِذَا آمَنَ وَاسْتَغْفَرَ زَالَ عَنْهُ مَا كَانَ مِنَ الذُّنُوبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ يعني: مُقَابَلَةً وَمُعَايَنَةً وَمُبَاشَرَةً، وَمَا هِيَ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ؟

الجواب: هِيَ أَخَذُهُمْ بِالْعَذَابِ الْعَامِّ، لَكِنْ لَمْ يَأْخُذِ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِعَذَابٍ شَامِلٍ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا رَبَّهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتُهُ بِسُنَّةٍ بَعَامَّةٍ^(١) فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ هَذِهِ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ، مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ مِنْ أَوَّلِهِمْ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى آخِرِهِمْ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا لَهُذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، يَعْنِي: وَلَمْ نُرْسِلْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُجْبِرُوا النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ، بَلْ هُمْ مَبَشِّرُونَ وَمُنْذِرُونَ، يُبَشِّرُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُنْذِرُونَ الْكَافِرِينَ.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، يَعْنِي: إِلَّا حَالٌ كَوْنِهِمْ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ الْمَجَادَلَةُ: هِيَ الْمُخَاصَمَةُ وَسُمِّيَتْ الْمُخَاصَمَةُ مُجَادَلَةً؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُجَادِلُ حُجَّتَهُ لِلْآخِرِ، وَالْجَدْلُ هُوَ قَتْلُ الْحَبْلِ حَتَّى يَشْتَدَّ وَيَقْوَى، هَذَا أَصْلُ الْمَجَادَلَةِ، إِذَا: يُجَادِلُ أَي: يُخَاصِمُ، وَالْمُخَاصَمَةُ بِالْبَاطِلِ بَاطِلَةٌ، مِثَالُ ذَلِكَ فِي الرُّسُلِ يَقُولُونَ: ﴿أَبَشِّرْهُمْ بِهَدُونَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴿[المؤمنون: ٢٤]، وَيُجَادِلُونَ فِي الْبَعْثِ فَيَقُولُونَ: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، وَيُجَادِلُونَ فِي الْآلِهَةِ يَقُولُونَ: إِذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حَصَبِ جَهَنَّمَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَجَادَلَةِ، وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ مُجَادَلَتَهُمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وَمِنْهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وَيُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُجَادِلُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَدْخُضَ الْحَقُّ فَإِنَّ لَهُ نَصِيبًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، يَعْنِي: أَنَّ فِيهِ نَصِيبًا مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، لِأَنَّ الْكَافِرِينَ هُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الشُّبُهَاتُ الَّتِي يُورِدُهَا مَنْ يُورِدُهَا مِنَ النَّاسِ، كَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهَا بَاطِلٌ وَهِيَ شُبْهَةٌ؟

فَالْجَوَابُ: إِذَا كَانَ عَرَضُهُمْ مِنْهَا أَنْ يُدْحِضُوا الْحَقَّ، مِثْلَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقِيقَةَ اسْتِوَاءِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَوْ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ لَكَانَ (جِسْمًا)، فَهَؤُلَاءِ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُدْحِضُوا الْحَقَّ الَّذِي أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَأَمَّا مَسْأَلَةُ أَنَّ اللَّهَ (جِسْمٌ) أَوْ غَيْرُ (جِسْمٍ) فَهَذِهِ شَيْءٌ آخَرُ.

المِهْمُ: أَتَمُّ اتَّوَا بِهِذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ أَجْلِ إِدْحَاضِ الْحَقِّ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ عَلَيْهِمْ مَسْأَلَةَ أَنَّهُ (جِسْمٌ أَوْ غَيْرُ جِسْمٍ)، نُنْكِرُ أَتَمُّ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ الْإِسْتِوَاءِ، وَأَمَّا مَسْأَلَةُ أَنَّهُ (جِسْمٌ أَوْ غَيْرُ جِسْمٍ) فَهَذَا مَبْحَثٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّا لَا نُثْبِتُ اللَّفْظَ (جِسْمٌ) وَلَا نُنْكِرُهُ، أَمَّا الْمَعْنَى فَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَقٌّ قَائِمٌ بِذَاتِهِ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، يَسْتَوِي عَلَى عَرْشِهِ، وَيَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَيَنْزِلُ لِيَفْصَلَ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَعْجَبُ وَيَفْرَحُ وَيَضْحَكُ، الْمِهْمُ أَنَّهُ كُلَّمَا رَأَيْتَ شَخْصًا يُجَادِلُ يُرِيدُ أَنْ يُدْحِضَ الْحَقَّ، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ.

﴿وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي: صَيَّرُوا، ﴿ءَايَتِي﴾ يعني: القرآن.

﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ أي: ما أُنذِرُوا بِهِ من العَذَابِ اتَّخَذُواهَا ﴿هُزُوًا﴾، مثال ذلك: أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَؤُوا لِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]، يعني: فِي قَعْرِهِ، فَصَارُوا يَضْحَكُونَ كَيْفَ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ النَّارِ، النَّارُ حَارَّةٌ جَافَّةٌ، وَالشَّجَرَةُ رَطْبَةٌ، فَجَعَلُوا يَسْتَهْزِئُونَ وَيَقُولُونَ: هَذَا مِنْ هَذَيَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاتَّخَذُوا مَا أُنذِرُوا بِهِ هُزُوًا وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَالٌ تُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦] ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ لَحْمِهِ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥]، يَمْلَأُونَ بُطُونَهُمْ مِنْ هَذِهِ الزَّقُّومِ مِلًّا تَامًّا ثُمَّ تَحْتَرِقُ مِنَ الْعَطَشِ، فَمَاذَا يُسْقَوْنَ؟ يُسْقَوْنَ مَاءً حَارًّا ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: عَلَى مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴿مِنْ لَحْمِهِ﴾، وَمَعَ ذَلِكَ يَشْرَبُونَ شُرْبًا لَيْسَ عَادِيًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهُ شُرْبُ الْإِبْلِ الْهَمِيمِ، الْعَطَاشِ، هَذِهِ الشَّجَرَةُ الَّتِي يَهْزَوْنَ بِهَا هِيَ الَّتِي يَمْلَأُونَ بِهَا بُطُونَهُمْ فِي جَهَنَّمَ.



الآية (٥٧)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴾ ٥٧ ﴾ .

• • ❦ • •

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي: ذكَّره الواعظُ بآياتِ ربِّه الكونيَّة، كأخذه الأمم المكذِّبين، أو الشرعيَّة كالقرآن.

﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾، ولم يقبلها، أي: لا أحد أظلم منه، فإن قيل: ما الجمعُ بين هذه الآية، وبين الآية التي في أوَّل السُّورة وهي قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ونحوها؟

فالجواب: بأحد وجهين:

الأوَّل: أنَّ الأفضليَّة باعتبار ما شاركه في أصل المعنى، فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ يعني: مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه فأعْرَضَ عنها مِنَ الَّذِينَ يُذَكَّرُونَ فَيُعْرِضُونَ، قد يُذَكَّرُ الإنسانُ فَيُعْرِضُ، لكنَّ أشدَّ ما يكون أن يُذَكَّرَ بآياتِ الله ثمَّ يُعْرِضَ عنها، وفي افتراء الكذب قد يفتري الإنسان الكذبَ على فلانٍ وفلانٍ، وأعظم ما يكون الافتراء عليه هو الله عَزَّجَلَّ، وأنت إذا أَخَذْتَ بهذه القاعدة سَلِمْتَ مِنْ إشْكَالٍ كَبِيرٍ.

الثاني: وقيل: إِنَّ (أَظْلَمَ) و(أَظْلَمَ) يَشْتَرِكَانِ فِي الْأَظْلَمِيَّةِ وَيَسَاوِيَانِ فِيهَا بالنسبة لغيرهما، وفيه نظرٌ لأنَّه لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ مِنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عنها أَنَّهُ يُسَاوِي مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَاوِي مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، ونحو ذلك.

قوله: ﴿بَيَّاتٍ رَبِّهِ﴾ الكَوْنِيَّةُ والشرعية؛ الكونيةُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: إِنَّ كُسُوفَ الشمسِ والقمرِ يُخَوِّفُ اللَّهَ بهما عِبَادَهُ فَيُعْرِضُ عنها ويقول: أَبَدًا خُسُوفُ القمرِ طَبِيعِيٌّ، وكسوفُ الشمسِ طَبِيعِيٌّ، ولا إنذارَ ولا نَذِيرَ، وهذا إعراضٌ، أمَّا الآياتُ الشرعيةُ فكثيرٌ مَنْ يُذَكِّرُ بآيَاتِ اللَّهِ وَيُعْرِضُ عنها.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني: نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنَ الْكُفْرِ والمعاصي والاستكبار وغير ذلك مما يَمْنَعُهُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ كُلَّمَا أَوْغَلَ فِي الْمَعَاصِي، ازداد بُعْدًا عَنِ الْإِقْبَالِ عَلَى الْحَقِّ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ولذلك يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَشَدِّ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ أَنْ يُعَاقَبَ الْإِنْسَانُ بِمَرَضِ الْقَلْبِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فالإنسانُ إِذَا عُوقِبَ بِهَلَاكِ حَبِيبٍ أَوْ فَقْدِ مَحْبُوبٍ مِنَ الْمَالِ، فهذه عُقُوبَةٌ لَا شَكَّ، لَكِنْ إِذَا عُوقِبَ بِانْسِلَاخِ الْقَلْبِ فهذه العقوبة أشدُّ ما يكونُ، يقول ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَاللَّهُ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا لَعَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ
وَلَيْتَنِي أَخْشَى انْسِلَاخَ الْقَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ^(١)

هذا هُوَ الَّذِي يَخْشَاهُ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ، أمَّا المصائبُ الأخرى فَهِيَ كَفَّارَاتُ

وَرُبَّمَا تَزِيدُ الْعَبْدَ إِيمَانًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَيَّرْنَا.

﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قُلُوبُ مَنْ ﴿ذُكِرَ بِبَيِّنَاتٍ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، وَأَعِيدَ ضَمِيرُ الْجَمْعِ عَلَى مُفْرَدٍ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ (مَنْ) سَوَاءٌ كَانَ اسْمًا مُوَصُولًا أَوْ شَرْطِيَّةً يَجُوزُ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ إِلَيْهَا أَنْ يَعُودَ عَلَى لَفْظِهَا فَيَكُونُ مُفْرَدًا، أَوْ يَعُودَ عَلَى مَعْنَاهَا فَيَكُونُ مَجْمُوعًا أَوْ مثنًى حَسَبَ السِّيَاقِ، فَإِذَا قُلْتَ: «يُعْجِبُنِي مَنْ قَامَ» فَهُنَا عَادَ عَلَى اللَّفْظِ، وَإِذَا قُلْتَ: «يُعْجِبُنِي مَنْ قَامَا» فَهُنَا يَعُودُ عَلَى الْمَعْنَى، وَكَذَلِكَ لَوْ قُلْتَ: «يُعْجِبُنِي مَنْ قَامُوا» وَقَدْ يُرَاعَى اللَّفْظُ مَرَّةً وَالْمَعْنَى مَرَّةً أُخْرَى وَتَعُودُ الضَّمَائِرُ لِمُرَاعَاةِ الْأَمْرَيْنِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فَهُنَا رُوِيَ اللَّفْظُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ رُوِيَ اللَّفْظُ أَيْضًا، وَقَوْلُهُ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ رُوِيَ فِيهَا الْمَعْنَى، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ رُوِيَ اللَّفْظُ، كُلُّ هَذَا جَاءَ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فَرُوِيَ اللَّفْظُ أَوَّلًا، ثُمَّ الْمَعْنَى ثَانِيًا، ثُمَّ اللَّفْظُ ثَالِثًا.

﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أَغْطِيَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أَنْ يَفْقَهُوا الْقُرْآنَ فَلَا يَفْهَمُونَهُ، وَفِي هَذَا الْحَثُّ عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ وَيَتَعَلَّمَ مَعْنَاهُ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَمَمًا، تَأْمَلْ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، الْقُلُوبُ عَلَيْهَا غِطَاءٌ فَلَا تَفْقَهُ، وَالْآذَانُ عَلَيْهَا صَمَمٌ فَلَا تَسْمَعُ، فَلَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَفْهَمُونَهُ.

﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ يعني: لو أرشدتهم يا محمد إلى الهدى.

﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا﴾ أي: ما دامت قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقرن يهتدوا، فمن أين يأتي الهدى، والآذان لا تسمع الحق والقلوب لا تنقاد للحق والعياذ بالله! فإن قال قائل: هل في هذا تيسر للرسول ﷺ من أنه وإن دعا لا يقبل منه، أو فيه تسلية له؟

فالجواب: في هذا تسلية له، وأنهم إذا لم يقبلوا الحق فلا عليك منهم ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا﴾.



الآيتان (٥٨، ٥٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَنَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ هذا فيه تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ: لِمَاذَا لَمْ يُعَاجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ، كَيْفَ يُكَذِّبُونَنِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَلَمْ يُعَاقِبْهُمْ؟! وَلَكِنْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ هُوَ ﴿ الْغَفُورُ ﴾ أَيُّ: الَّذِي يَسْتُرُ الذُّنُوبَ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهَا.

﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أَيُّ: صَاحِبُ الرَّحْمَةِ الَّذِي يُلْطَفُ بِالْمَذْنِبِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ يَعْنِي: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُؤَاخِذَ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هَذَا الْعَذَابَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى فَقَالَ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]، أَيُّ: لِأَهْلَكِهِمْ فِي الْحَالِ، وَلَكِنْ ﴿ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾ (بَلْ) هَذِهِ لِلْإِضْرَابِ الْإِبْطَالِي، يَعْنِي: بَلْ لَنْ يَسْلَمُوا مِنَ الْعَذَابِ إِذَا أُخِّرَ عَنْهُمْ، لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾، أَيُّ: مَكَانًا يُؤْوُونَ إِلَيْهِ، وَهَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَا يَحْصُلُ لِلْكَفَّارِ

مِنَ الْقَتْلِ عَلَى أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُّهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾ وَيُذْهِبَ غِطَ قُلُوبِهِمْ ۝ [التوبة: ١٤-١٥]، إِذَا: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَتْلِ، وَالْأَخْذِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا مَفْرَ مِنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أَي: قَرَى الْأَمَمِ السَّابِقِينَ، قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هُنَا إِشْكَالٌ فَإِنَّ الْقُرَى جَمَادٌ، وَالْجَمَادُ لَا يَعُودُ عَلَيْهِ الضَّمِيرُ بِصِغَةِ الْجَمْعِ، يَعْنِي: أَنَّكَ لَا تَقُولُ مِثْلًا: «هَذِهِ الْبُيُوتُ عَمَرْنَاهُمْ» وَلَكِنْ تَقُولُ: «هَذِهِ الْبُيُوتُ عَمَرْنَاهَا»، فَلِمَاذَا قَالَ: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾؟

فالجواب: قَالَ هَذَا؛ لِأَنَّ الَّذِي يُهْلِكُ هُمْ أَهْلُ الْقُرَى، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْقُرَى قَدْ يَرَادُ بِهَا أَهْلُهَا، وَقَدْ يَرَادُ بِهَا الْبِنَاءُ الْمَجْتَمِعُ، فَالْقَرْيَةُ أَوْ الْقُرَى تَارَةً يُرَادُ بِهَا أَهْلُهَا وَتَارَةً يُرَادُ بِهَا الْمَسَاكِينُ الْمَجْتَمِعَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، فَالمراد بِالْقُرَى هُنَا: أَهْلُهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، وَالمرادُ بِالْقَرْيَةِ هُنَا: الْمَسَاكِينُ الْمَجْتَمِعَةُ.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ المراد بِالظُّلْمِ هُنَا: الْكُفْرُ، أَي: حِينَ كَفَرُوا. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾ يَعْنِي: جَعَلْنَا لِأَهْلَاكِهِمْ مَوْعِدًا، وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ الْعُقُوبَةَ وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ الْمَوْعِدُ لَا يَتَأَخَّرُ، وَلِهَذَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، فَهُوَ أَجَلٌ مُّعَيَّنٌّ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.



الآيتان (٦٠، ٦١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْعَ مَجْمَعَ
الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ﴾ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ والتقدير: «اذكُرْ إِذْ قَالَ»، يعني:
واذكُرْ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ أَي: غَلَامُهُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
ابْنُ عِمْرَانَ قَامَ يَخْطُبُ يَوْمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَامَ أَحَدُهُمْ وَقَالَ: هَلْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: «لا»، وَذَلِكَ بِنَاءٍ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعَتَبَ اللَّهُ
عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، لِمَاذَا لَمْ يَكِلِ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ لِي عَبْدًا أَعْلَمُ مِنْكَ وَإِنَّهُ
فِي مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، وَذَكَرَ لَهُ عَلَامَةً وَهِيَ أَنْ تَقْفِدَ الْحُوتَ، فَاصْطَحَبَ حُوتًا مَعَهُ فِي
مِكْتَلٍ^(١) وَسَارَ هُوَ وَفَتَاهُ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ، جَاءَ ذَلِكَ فِي الْبُخَارِيِّ^(٢)، لِيَنْظُرَ مِنْ هَذَا الَّذِي
هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ ثُمَّ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ أَيْضًا، كَانَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا مَعَ السُّرْعَةِ لَمْ
يَفْتَسِحَا فِي الْمِكْتَلِ، وَخَرَجَ الْحُوتُ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنَ الْمِكْتَلِ وَدَخَلَ فِي الْبَحْرِ.

(١) الْمِكْتَلُ: شِبْهُ الزَّنْبِيلِ الَّذِي يُحْمَلُ فِيهِ الثَّمَرُ أَوْ الْعِنَبُ، يَسَعُ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا. انظر: الصحاح
للجوهري (١٨٠٩/٥)، ولسان العرب (٥٨٣/١١)، [كتل].

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم أن
يكل العلم إلى الله، رقم (١٢٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ،
رقم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أَي: لَا أَزَالُ، وَالْحَبْرُ مَحْذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ: «لَا أَزَالُ أُسِيرُ».

﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قِيلَ: إِنَّهُ مَكَانُ اللَّهِ أَعْلَمَ بِهِ، لَكِنَّ مُوسَى يَعْلَمُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مَلْتَقَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ مَعَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ، وَكَانَ فِيهَا سَبَقَ بَيْنَهُمَا أَرْضٌ، حَتَّى فُتِحَتْ الْقَنَاءُ وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا فِي مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَعْلَمُ مِنْكَ.

﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾، ﴿أَوْ﴾ هُنَا لِلتَّنَوُّعِ، يَعْنِي: إِمَّا أَنْ أُبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى فِي السَّيْرِ حُقْبًا أَي: دُحُورًا طَوِيلَةً، وَقِيلَ: ﴿أَوْ﴾ بِمَعْنَى (إِلَّا) أَي: حَتَّى أُبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ إِلَّا أَنْ ﴿أَمْضَى حُقْبًا﴾ أَي: دُحُورًا طَوِيلَةً قَبْلَ أَنْ أُبْلُغَهُ، لَكِنَّ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ أَسَدُّ، فَتَهَيَّأَ لَذَلِكَ وَسَارَا، وَسَبَبُ قَوْلِهِ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى مُوسَى أَنَّ عَبْدًا لَنَا هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ عِنْدَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَارَ مُوسَى إِلَيْهِ طَلَبًا لِلْعِلْمِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أَي: مُوسَى وَفَتَاهُ.

﴿مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ أَي: بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِمَا مَعَ أَنَّ النَّاسِيَ هُوَ الْفَتَى وَلَيْسَ مُوسَى، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ إِذَا كَانُوا فِي شَأْنٍ وَاحِدٍ وَفِي عَمَلٍ وَاحِدٍ، نُسِبَ فِعْلُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَوْ الْقَائِلِ مِنْهُمْ إِلَى الْجَمِيعِ، وَلِهَذَا يُخَاطَبُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ الرُّسُولِ ﷺ فَيَقُولُ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، مَعَ أَنَّهُمْ مَا قَالُوا هَذَا؛ لَكِنَّ قَالَهُ أَجْدَادُهُمْ.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نِسْيَانٌ ذُهُولٌ وَلَيْسَ نِسْيَانٌ تَرْكٌ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ،

أَنَّ اللَّهَ أَنْسَاهُمَا ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، وَهَذَا الْخُوثُ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَامَةً لِمُوسَى،
 أَنَّكَ مَتَى فَقَدْتَ الْحُوتَ فَتَمَّ الْخَضِرُ، وَهَذَا الْخُوثُ كَانَ فِي مِكَتَلٍ وَكَانَا يَقْتَاتَانِ مِنْهُ،
 وَلَمَّا وَصَلَا إِلَى مَكَانٍ مَا نَامَا فِيهِ عِنْدَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا وَإِذَا الْحُوتُ لَيْسَ
 مَوْجُودًا، لَكِنَّهُ أَيُّ: الْفَتَى لَمْ يَتَفَقَّدِ الْمِكَتَلَ وَنَسِيَ شَأْنَهُ وَأَمْرَهُ، هَذَا الْحُوتُ -
 سُبْحَانَ اللَّهِ- خَرَجَ مِنَ الْمِكَتَلِ، وَدَخَلَ فِي الْبَحْرِ وَجَعَلَ يَسِيرُ فِي الْبَحْرِ، وَالْبَحْرُ
 يَنْحَازُ عَنْهُ.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أَيُّ: اتَّخَذَ الْحُوتُ طَرِيقَهُ فِي الْبَحْرِ.

﴿سَرَبًا﴾ أَيُّ: مِثْلَ السَّرَبِ، وَالسَّرَبُ هُوَ السَّرْدَابُ يَعْنِي: أَنَّهُ يَشُقُّ الْمَاءَ وَلَا
 يَتَلَاءَمُ الْمَاءُ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَقَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْخُوثَ إِذَا انْعَمَرَ فِي
 الْبَحْرِ يَتَلَاءَمُ الْبَحْرُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ هَذَا الْخُوثَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، أَوَّلًا: أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، وَأَنَّهَا
 يَقْتَاتَانِ مِنْهُ، ثُمَّ صَارَ حَيًّا وَدَخَلَ الْبَحْرَ، ثَانِيًا: أَنَّهُ صَارَ طَرِيقُهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ،
 وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



الآيات (٦٢ - ٦٥)

•••••

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرِنَدَا عَلَىٰ ءَئَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥)﴾.

•••••

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ الفاعل موسى وفناه ﴿جَاوَزَا﴾ يعني: تَعَدَّيَا ذلك المكان، قال موسى لِفَتَاهُ: ﴿ءَيْنَا غَدَاءَنَا﴾ وكان ذلك؛ لأنَّ الغدَاء هو الطعام الذي يُؤْكَل في الغداة.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: تَعَبًا.

وقوله: ﴿مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ ليس المرادُ مِنْ حِينَ ابْتِدَاءِ السَّفَرِ ولكنْ مِنْ حِينَ مَا فَارَقَا الصَّخْرَةَ، ولذلك طَلَبَ الغدَاء، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وهذا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَقَدْ سَارَا قَبْلَ ذَلِكَ مَسَافَةً طَوِيلَةً وَلَمْ يَتَعَبَا، وَلِمَا جَاوَزَا الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ الْحَضَرُ، تَعَبَا سَرِيعًا مِنْ أَجْلِ أَلَّا يَتِمَّادِيَا فِي الْبُعْدِ عَنِ الْمَكَانِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ أي: قَالَ الْفَتَى لِمُوسَى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: مَا حَصَلَ حِينَ لَجَأُنَا إِلَى الصَّخْرَةِ، وَالْمَرَادُ بِالْإِسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبُ أَوْ تَعْجِيبُ مُوسَى.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ يعني: نَسِيتُ أَنْ أَتَفَقَّدَهُ أَوْ أَسْعَى فِي شَأْنِهِ أَوْ أَذْكُرُهُ لَكَ، وإلا فالحوت معروفٌ كان في المِكتَلِ.

﴿وَمَا أُنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرُهُ﴾ قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرُهُ﴾ هذه بَدَلٌ مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿أُنْسِنِيهِ﴾، يعني: مَا أُنْسَانِي ذِكْرَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ.

﴿وَأَتَّخِذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، أي: اتَّخَذَ الْفَتَى أَوْ مُوسَى سَبِيلَ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ. ﴿عَجَبًا﴾ يعني: مَحَلُّ عَجَبٍ، وَهُوَ مَحَلُّ عَجَبٍ، مَاءٌ سَيَّالٌ يَمُرُّ بِهِ هَذَا الْحَوْتُ، وَيَكُونُ طَرِيقُهُ سَرَبًا، فَكَانَ هَذَا الطَّرِيقُ لِلْحَوْتِ سَرَبًا، وَلَمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، وَلَنَا أَيْضًا عَجَبٌ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ عَادَةً يَتَلَاءَمُ عَلَى مَا يَمُرُّ بِهِ، لَكِنَّ هَذَا الْحَوْتَ -بِإِذْنِ اللَّهِ- لَمْ يَتَلَاءَمِ الْمَاءُ عَلَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أي: قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أي: مَا كُنَّا نَطْلُبُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ إِذَا فَقَدَ الْحَوْتَ، فَذَاكَ مَحَلُّ اتِّفَاقِهِ مَعَ الْخَضِرِ.

﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يعني: رَجَعَا بَعْدَ أَنْ أَخَذَا مَسَافَةً تَعَبًا فِيهَا، ارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا، يَعْنِي: يَقْصَصَانِ أَثَرَهُمَا؛ لِئَلَّا يَضِيعَ عَنْهُمَا الْمَحَلُّ الَّذِي كَانَا قَدْ أُوِيَا إِلَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وَهُوَ الْخَضِرُ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم أن يكل العلم إلى الله، رقم (١٢٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، رقم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هل هو عَبْدٌ مِّنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَوْ مِّنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ كَرَامَاتٌ أَمْ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُوَحَّيِّ إِلَيْهِمْ؟ كُلُّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ، لَكِنَّ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِرَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ، إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ صَالِحٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كَرَامَاتٍ؛ لِيُبَيِّنَ اللَّهُ بِذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَا يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَأَنَّهُ يَفُوتُهُ مِنَ الْعِلْمِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

﴿أَنِّيَنَّهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي: أَنَّ اللَّهَ جَلَّوَعَلَا جَعَلَهُ مِّنْ أَوْلِيَائِهِ بِرَحْمَتِهِ إِيَّاهُ.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: عِلْمًا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَهُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَعِينَةِ وَلَيْسَ عِلْمُ نُبُوَّةٍ وَلَكِنَّهُ عِلْمٌ خَاصٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي أَطَّلَعَ عَلَيْهِ الْخَضِرُ لَا يُمَكِّنُ إدْرَاكَهُ وَلَيْسَ شَيْئًا مُّبْنِيًّا عَلَى الْمَحْسُوسِ، فَيُنَبِّئِي الْمُسْتَقْبَلَ عَلَى الْحَاضِرِ، بَلْ شَيْءٌ مِّنَ الْغَائِبِ، فَأَطَّلَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَعْلُومَاتٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ.



الآيات (٦٦ - ٧٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي: قَالَ مُوسَى لِلْخَضِرِ: هَلْ أَتَّبِعُكَ، وهذا عَرْضٌ لَطِيفٌ وَتَوَاضُعٌ، وَتَأَمُّلٌ هَذَا الْأَدَبُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَنَّ مُوسَى أَفْضَلُ مِنْهُ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَلَطَّفُ مَعَهُ لِأَنَّهُ سَوْفَ يَأْخُذُ مِنْهُ عِلْمًا لَا يَعْلَمُهُ مُوسَى، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَلَطَّفَ مَعَ شَيْخِهِ وَمَعَ أَسَاتِذِهِ وَأَنْ يُعَامِلَهُ بِالْإِكْرَامِ، ثُمَّ بَيَّنَّ مُوسَى أَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَهُ لِيَأْكُلَ مِنْ أَكْلِهِ أَوْ يَشْرَبَ مِنْ شُرْبِهِ، وَلَكِنْ ﴿ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخَضِرَ سَيَفْرَحُ بِمَنْ يَأْخُذُ عَنْهُ الْعِلْمَ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمًا يَنْبَغِي أَنْ يَفْرَحَ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ هَذَا الْعِلْمُ، لِأَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ يَنْتَفِعُ بِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا. ﴿١٨﴾

﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وَبَيَّنَّ لَهُ عُذْرَهُ فِي قَوْلِهِ هَذَا، فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، وَأَيْنَ الدَّلِيلُ لِلْخَضِرِ أَنَّ مُوسَى لَمْ يُحِطْ بِذَلِكَ خُبْرًا؟
الْجَوَابُ: لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ فِيهَا عِنْدَ الْخَضِرِ.

فَمَاذَا قَالَ مُوسَى؟ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.
﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَهُ فِيمَا يَعْتَقِدُهُ فِي نَفْسِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنْ أَنَّهُ سَيَصْبِرُ، لَكِنَّهُ عَلَّقَهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لِثَلَا يَكُونُ ذَلِكَ اعْتِرَازًا بِنَفْسِهِ وَإِعْجَابًا بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هُوَ كَقَوْلِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ أَبَوُهُ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿[الصافات: ١٠٢]﴾، وَمُوسَى قَالَ لِلْخَضِرِ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، وَأَيْضًا أَصْبِرُ عَلَى مَا تَفْعَلُ وَأُمْتَلُ مَا بِهِ تَأْمُرُ ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وَعَدَهُ بِشَيْئَيْنِ:

١ - الصبر على ما يفعل.

٢ - الاتِّسَارَ بِهَا يَا مُرُّ، وَالانْتِهَاءَ عَمَّا يَنْهَى.

قَالَ الْخَضِرُ: ﴿قَالَ فَإِنْ أَتْبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَتْبَعْتَنِي﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ سَيَتَّبِعُهُ.

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أَي: عَنْ شَيْءٍ مِمَّا أَفْعَلُهُ.

﴿حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿حَتَّى﴾ هُنَا لِلْغَايَةِ، يَعْنِي: إِلَى أَنْ ﴿أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أَي: إِلَى أَنْ أَذْكُرَ لَكَ السَّبَبَ، وَهَذَا تَوْجِيهٌ مِنْ مُعَلِّمٍ لِمَنْ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، أَلَّا يَتَعَجَّلَ فِي الرَّدِّ عَلَى مُعَلِّمِهِ، بَلْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يُحَدِّثَ لَهُ بِذَلِكَ ذِكْرًا، وَهَذَا مِنْ آدَابِ الْمُتَعَلِّمِ أَلَّا يَتَعَجَّلَ فِي الرَّدِّ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْأَمْرُ.



الآيات (٧١ - ٧٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَلِّخُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرَهِّقْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ الفاعل موسى والخضر، وسَكَتَ عن الفتى، فهل الفتى تأخر عن الركوب في السفينة، أم أنه ركب ولكن لما كان تابعاً لم يكن له ذكر؟
الجواب: الذي يظهر - والله أعلم - أنه كان تابعاً، لكن لم يكن له تعلق بالمسألة، والأصل هو موسى طوي ذكره، وهو أيضاً تابع.
﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ مرّت سفينة، وهما يمشيان على شاطئ البحر، فركبا فيها.

﴿خَرَقَهَا﴾ أي: الخضر بقلع إحدى خشبها الذي يدخل منه الماء، فقال له موسى: ﴿أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وهذا إنكار من موسى على الخضر مع أنه قال له: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ لكنه لم يصبر؛ لأن هذه مُشْكِلَتُهَا عَظِيمَةٌ، سفينة في البحر يخرقها فتغرق! واللام في قوله: ﴿لِنُغْرِقَ﴾ ليست للتعليل ولكنها للعاقبة، يعني: أنك إذا خرقتها غرق أهلها، وإلا لا شك أن موسى لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضاً أنه يدري أنه لا يريد أن يغرق أهلها، لأنه لو أراد أن يغرق

أَهْلَهَا لَكَانَ أَوَّلَ مَنْ يَغْرُقُ هُوَ وَمُوسَى، لَكِنَّ اللَّامَ هُنَا لِلْعَاقِبَةِ وَلَا مَ الْعَاقِبَةُ تَرُدُّ فِي
غَيْرِ مَوْضِعٍ فِي الْقُرْآنِ، مِثْلَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَالنَّفْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ
عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

لَوْ سَأَلْنَا أَيَّ إِنْسَانٍ: هَلْ أَلْ فِرْعَوْنَ التَّقْطُوهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا؟
الْجَوَابُ: أَبَدًا، وَلَكِنْ هَذِهِ لِلْعَاقِبَةِ.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ يَعْنِي: شَيْئًا عَظِيمًا، يَعْنِي: كَانَ مُوسَى شَدِيدًا قُوِيًّا فِي
ذَاتِ اللَّهِ، فَهُوَ أَنْكَرَ عَلَيْهِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ فِعْلَهُ سَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ الْإِغْرَاقُ، وَزَادَهُ تَوْبِيخًا فِي
قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، وَالْجُمْلَةُ هُنَا مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ:

١- اللَّامِ.

٢- قَدْ.

٣- الْقَسَمُ الْمَقْدَرُ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّامُ، وَالْإِمْرُ بِكَسْرِ الهمزة الشَّيْءُ الْعَظِيمُ،
وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي سَفْيَانَ لِهَرَقْلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَبَيَّنَّ لَهُ حَالَهُ وَصِفَاتِهِ وَمَا
كَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ، فَلَمَّا انصَرَفَ مَعَ قَوْمِهِ، قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: «لَقَدْ أَمَرَ أَمْرٌ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ
إِنَّهُ لِيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ»^(١)، يَعْنِي: بَابِنِ أَبِي كَبْشَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وَ«أَمَرَ أَمْرُهُ»
يَعْنِي: عَظَّمَ أَمْرَهُ.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢).

فَاعْتَدَرَ مُوسَى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣).

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ،
رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هَرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ،
رقم (١٧٧٣).

وسبب نسيان موسى: أنَّ الأمرَ عَظِيمٌ اندَهَشَ له أن تَغْرَقَ السَّفِينَةُ وَهُمْ عَلَى ظَهْرِهَا، وهذه تُوجِبُ أَنَّ الإنسانَ يَنْسَى ما سَبَقَ مِنْ شِدَّةٍ وَقَعَ ذلك في النَّفْسِ.

وقوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بِنَسْيَانِي، ولهذا نقولُ في إعرابِ (ما): إِنَّهَا مَصْدَرِيَّةٌ، أي: بِنَسْيَانِي ذلك وهو قَوْلِي: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يعني: لَا تُثْقِلْ عَلَيَّ وَتُعَسِّرْ عَلَيَّ الْأُمُورَ؛ وَكَأَنَّ هَذَا -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- تَوَاطُؤُهُ لَهَا يَأْتِي بَعْدَهُ.



الآيات (٧٤ - ٧٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) إِنْ سَأَلْتَهُ عَنِ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦). ﴿

• • • • •

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بعد أن أُرْسِتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْمِينَاءِ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ ولم يَقُلْ: «قَتَلَهُ»، وفي السفينة قَالَ: ﴿خَرَقَهَا﴾ ولم يَقُلْ: «فَخَرَقَهَا»، يعني: كَأَن شَيْئًا حَصَلَ قَبْلَ الْقَتْلِ فَقَتَلَهُ.

﴿غُلَامًا﴾ الغُلامُ هو الصغير، ولم يَصْبِرْ مُوسَى، ﴿قَالَ أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ وفي قِرَاءَةِ (زَاكِيَّةً) لِأَنَّهُ غُلَامٌ صَغِيرٌ، وَالْغُلَامُ الصَّغِيرُ تُكْتَبُ لَهُ الْحَسَنَاتُ، وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ، إِذَا: فَهُوَ زَكِيٌّ لِأَنَّهُ صَغِيرٌ وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني: أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا حَتَّى تَقْتُلَهُ، وَلَكِنْ لَوْ أَنَّهُ قَتَلَ هَلْ يُقْتَلُ

أَوْ لَا؟

الْجَوَابُ: فِي شَرِيْعَتِنَا لَا يُقْتَلُ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ وَلَا عَمْدَ لَهُ، عَلَى أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ بِالْعَا، وَسُمِّيَ بِالْغُلَامِ لِقُرْبِ بُلُوغِهِ وَحِينَئِذٍ يَزُولُ الْإِشْكَالُ.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ هَذِهِ الْعِبَارَةُ أَشَدُّ مِنَ الْعِبَارَةِ الْأُولَى، فِي الْأُولَى قَالَ:

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، وَلَكِنْ هُنَا قَالَ: ﴿نُكْرًا﴾ أَي: مُنْكَرًا عَظِيمًا، وَالْفَرْقُ بَيْنَ

هذا وهذا، أَنَّ خَرَقَ السَّفِينَةَ قد يكونُ به الغَرَقُ وقد لا يكونُ، وهذا هو الذي حَصَلَ،
لم تَغْرَقِ السَّفِينَةُ، أما قَتْلُ النَّفْسِ فهو منكَرٌ حادثٌ ما فيه احتمالٌ.

فقال الحَضِرُ:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ هُنَا فِيهَا لَوْمٌ أَشَدُّ عَلَى مُوسَى، فِي الْأَوَّلَى قَالَ:
﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ وَفِي الثَّانِيَةِ قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ يَعْنِي: كَأَنَّكَ لَمْ تَفْهَمْ وَلَنْ تَفْهَمْ،
وَلِذَلِكَ كَانَ النَّاسُ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ، فَلَوْ أَنَّكَ كَلَّمْتَ شَخْصًا بِشَيْءٍ وَخَالَفَكَ
فَتَقُولُ فِي الْأَوَّلِ: «أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ»، وَفِي الثَّانِي تَقُولُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ» يَعْنِي: أَنَّ الْخِطَابَ
وَرَدَّ عَلَيْكَ وَرُودًا لَا خَفَاءَ فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ خَالَفْتَ، فَكَانَ قَوْلُ الْحَضِرِ لِمُوسَى فِي
الثَّانِيَةِ أَشَدَّ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾، فَقَالَ لَهُ مُوسَى لَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُ:

﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي فَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦).

قوله تعالى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ أَي: امْنَعْنِي مِنْ صُحِّيتِكَ،
وَفِي قَوْلِ مُوسَى: ﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرَى أَنَّهُ أَعْلَى مِنْهُ
مَنْزِلَةً وَإِلَّا لَقَالَ: «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا أَصَاحِبُكَ».

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ يَعْنِي: أَنَّكَ وَصَلْتَ إِلَى حَالٍ تُعَذِّرُ فِيهَا، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ
عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَعَ أَنَّ مُوسَى التَّزَمَ إِلَّا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يُجِذِّثَ لَهُ مِنْهُ ذِكْرًا.



الآيتان (٧٧، ٧٨)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أُنِيََا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۗ﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ﴾ (٧٨) ﴿٧٧﴾

• • •

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أُنِيََا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ولم يعين الله عز وجل القرية فلا حاجة إلى أن نبحث عن هذه القرية، بل نقول: قرية أبهمها الله فنبهمها. ﴿اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: طلبا من أهلها طعاما.

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولا شك أن هذا خلاف الكرم، وهو نقص في الإيمان؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(١).

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: أنه مائل يُريدُ أَنْ يَسْقُطَ، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟

فالجواب: نعم له إرادة، فإنَّ ميله يدلُّ على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَانَ لِلْجَمَادِ إِرَادَةٌ فَهَا هُوَ (أُحَدِّثُ) قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(١)، وَالْحَبَّةُ وَصَفٌ زَائِدٌ عَلَى الْإِرَادَةِ، أَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ يُجِيزُونَ الْمَجَازَ فِي الْقُرْآنِ: إِنَّ هَذَا كِنَايَةٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْجَمَادِ إِرَادَةٌ فَلَا وَجْهَ لَهُ.

﴿فَأَقَامَهُ﴾ أَيُّ: أَقَامَهُ الْخَضِرُ، لَكِنْ كَيْفَ أَقَامَهُ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ، قَدْ يَكُونُ أَقَامَهُ بِإِيْدِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ قُوَّةً فَاسْتَقَامَ الْجِدَارُ، وَقَدْ يَكُونُ بِنَاؤُهُ الْبِنَاءُ الْمُعْتَادَ، الْمُهِمُّ أَنَّهُ أَقَامَهُ، وَلَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ تَعَالَى طُولَ الْجِدَارِ وَلَا مَسَافَتَهُ وَلَا نَوْعَهُ فَلَا حَاجَةَ أَنْ نَتَكَلَّفَ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ.

﴿قَالَ﴾ أَيُّ: مُوسَى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وَلَمْ يُكْرَرْ عَلَيْهِ أَنْ يَبْنِيَهُ وَلَا قَالَ: كَيْفَ تَبْنِيهِ وَقَدْ أَبَوَا أَنْ يُضَيِّقُونَا؟! بَلْ قَالَ: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ أُسْلُوبٌ رَقِيقٌ فِيهِ عَرَضٌ لَطِيفٌ، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيُّ: عَوَضًا عَنْ بِنَائِهِ.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيَّتُكَ بِنَاوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ﴾ أَيُّ: قَالَ الْخَضِرُ مُوسَى: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أَيُّ: انْتَهَى مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَلَا صُحْبَةَ، ﴿سَأْنِيَّتُكَ﴾ أَيُّ: سَأْخَبْرُكَ عَنْ قُرْبٍ قَبْلَ الْمَفَارَقَةِ ﴿بِنَاوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، وَإِنَّمَا قُلْنَا: «سَأْخَبْرُكَ عَنْ قُرْبٍ» لِأَنَّ السَّيْنَ تَدُلُّ عَلَى الْقُرْبِ بِخِلَافِ سَوْفَ، وَهِيَ أَيْضًا تُفِيدُ مَعَ الْقُرْبِ التَّحْقِيقَ.

﴿بِنَاوِيلٍ﴾ أَيُّ: بِتَفْسِيرِهِ وَبَيَانِ وَجْهِهِ.



(١) متفق عليه، أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيات (٧٩ - ٨١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧٩﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٨٠﴾ وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨١﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾ (ال) في السفينة هي للعهد الذكري أي: السفينة التي خرقتها.

﴿ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي: أنهم يطلبون الرزق فيها إمّا بتأجيرها، أو صيد السمك عليها ونحوه، وهم مساكين جمع، والجمع أقله ثلاثة، وليس ضروريًا أن نعرف عددهم.

﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ يعني: أن أجعل فيها عيبًا، لماذا؟ قال:

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِهَذَا الْمَلِكِ، قَالَ: هَذِهِ سَفِينَةٌ مَعِيَّةٌ لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ إِلَّا السُّفْنَ الصَّالِحَةَ الْجَيِّدَةَ، أَمَا هَذِهِ فَلَا حَاجَةَ لَهُ فِيهَا، فَصَارَ فِعْلُ الْخَضِرِ مِنْ بَابِ دَفْعِ أَشَدِّ الضَّرَرَيْنِ بِأَخْفِهِمَا، وَمِنْهُ يُؤْخَذُ فَائِدَةُ عَظِيمَةٌ وَهِيَ: إِتْلَافُ بَعْضِ الشَّيْءِ لِإِصْلَاحِ بَاقِيهِ، وَالْأَطْبَاءُ يَعْمَلُونَ بِهِ، تَجِدُهُ يَأْخُذُ مِنَ الْفَخِذِ قِطْعَةً فَيُصْلِحُ بِهَا عَيْبًا فِي الْوَجْهِ، أَوْ فِي

الرأس، أو ما شابه ذلك، وأخذ منه العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ: «أَنَّ الْوَقْفَ إِذَا دَمَرَ وَخَرِبَ فلا بأس أن يُباعَ بَعْضُهُ وَيُصْرَفَ ثَمَنُهُ فِي إِصْلَاحِ بَاقِيهِ»، ثُمَّ بَيَّنَّ الْحَضَرُ حَالَ الْغَلَامِ فَقَالَ:

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠).

قوله تعالى: ﴿أَبَوَاهُ﴾ أي: أبوه وأُمُّهُ ﴿مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: وهو كافرٌ.

﴿فَخَشِينَا﴾ أي: خِفْنَا، وَالْحَشْيَةُ فِي الْأَصْلِ خَوْفٌ مَعَ عِلْمٍ، وَأَتَى بِضَمِيرِ

الجمع للتعظيم.

﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني: يَحْمِلُهُمَا عَلَى الطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ، إِمَّا مِنْ حُبِّتَيْهِمَا إِيَّاهُ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْوَالِدَ يُؤَثِّرُ عَلَى وَلَدِهِ، وَلَكِنْ قَدْ يُؤَثِّرُ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ، كَمَا أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الزَّوْجَ يُؤَثِّرُ عَلَى زَوْجَتِهِ، وَلَكِنْ قَدْ تُؤَثِّرُ الزَّوْجَةُ عَلَى زَوْجِهَا.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رِئْيسًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ يعني: أَنَا إِذَا قَتَلْنَاهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ وَأَبْقَى؛ نَوْمُلُ مِنْهُ تَعَالَى ﴿أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رِئْيسًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ أي: فِي الدِّينِ، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: فِي الصَّلَاةِ، يَعْنِي: أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ اللَّهَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمَا بِمَنْ هُوَ أَزْكَى مِنْهُ فِي الدِّينِ، وَأَوْصَلُ فِي صَلَاةِ الرَّحِمِ، وَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُقْتَلُ الْكَافِرُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنْشُرَ كُفْرَهُ فِي النَّاسِ.



الآيتان (٨٢، ٨٣)

••❦••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢) وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٨٣) ۞.

••❦••

قوله تعالى: ﴿لِغُلَامَيْنِ﴾ يعني: صغيرين.

﴿يَتِيمَيْنِ﴾ قد مات أبوهما.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: القرية التي أتياها.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي: كان تحت الجدار مالٌ مدفونٌ لهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فكان من شكر الله عزَّ وجلَّ لهذا الأب الصالح أن يكون رؤوفاً بأبنائه، وهذا من بركة الصلاح في الآباء أن يحفظ الله الأبناء.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أراد الله عزَّ وجلَّ ﴿أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أن يبلُغا ويكبرَا حتى يصلَا إلى سنِّ الرُّشد، وهو أربعون سنةً عند كثير من العلماء، وهنا ما قال: «فَارَدْنَا» وَلَا قَالَ: «فَارَدْتُ»، بَلْ قَالَ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لِأَنَّ بقاء الغلامين حتى يبلُغا أَشُدَّهُمَا ليس للخضر فيه أيُّ قُدرة، لكنَّ الخشية - خشية أن

يُرْهِقَ الْغَلَامَ أَبُوَيْهِ بِالْكَفْرِ - تَقَعُ مِنَ الْخَضِرِ، وكذلك إرادة عَيْبِ السَّفِينَةِ.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ حتى لا يَبْقَى تحتِ الْجِدَارِ، ولو أَنَّ الْجِدَارَ انْهَدَمَ لظَهَرَ الْكَنْزُ وَأَخَذَهُ النَّاسُ.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ هذه مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، والعاملُ فِيهِ: أَرَادَ، يعني: أَرَادَ اللهُ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني: مَا فَعَلْتُ هَذَا الشَّيْءَ عَنْ عَقْلِ مِنِّي أَوْ ذِكَايَ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ بِالْهَامِ مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ وَتَوْفِيقٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ فَوْقَ مَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ.

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلٌ﴾ أي: ذَلِكَ تَفْسِيرُهُ الَّذِي وَعَدْتُكَ بِهِ، ﴿سَأُنَبِّتُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: تَفْسِيرِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ هُنَا فِي الثَّانِي الْعَاقِبَةِ، يعني: ذَلِكَ عَاقِبَةُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا؛ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ يَرَادُ بِهِ الْعَاقِبَةُ وَيُرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ.

﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ﴾ وفي الْأَوَّلِ قَالَ: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ﴾ لِأَنَّ (اسْتَطَاعَ وَاسْطَاعَ وَيَسْتَطِيعُ وَيَسْتَطِيعُ) كُلُّ مِنْهَا لُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ صَحِيحَةٌ.

وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدِي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي تَفْسِيرِهِ (تيسيرِ الكريمِ الرَّحْمَنِ) ^(١) فَوَائِدَ جَمَّةَ عَظِيمَةٍ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ لَا تَجِدُهَا فِي كِتَابٍ آخَرَ فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُرَاجِعَهَا لِأَنَّهَا مُفِيدَةٌ جَدًّا. وبهذا انتهت قِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٨٣-٤٨٥).

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةً أُخْرَى سَأَلُوا عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞﴾ (٨٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ سِوَاءٍ مِنْ يَهُودٍ، أَوْ مِنْ قُرَيْشٍ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ.

﴿عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أَيُّ: صَاحِبِ الْقَرْنَيْنِ، وَكَانَ لَهُ ذِكْرٌ فِي التَّارِيخِ.

وَقَدْ قَالَ الْيَهُودُ لِقُرَيْشٍ: اسْأَلُوا مُحَمَّدًا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ؛ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهُ فَهُوَ نَبِيٌّ، وَلِمَاذَا سُمِّيَ بِذِي الْقَرْنَيْنِ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ ذُو الْمُلْكِ الْوَاسِعِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَإِنَّ الْمَشْرِقَ قَرْنٌ وَالْمَغْرِبَ قَرْنٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الْمَشْرِقِ: «حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»^(١)، فَيَكُونُ هَذَا كِنَايَةً عَنْ سِعَةِ مُلْكِهِ.

وَقِيلَ: ذُو الْقَرْنَيْنِ لِقُوَّتِهِ، وَلِذَلِكَ يُعْرَفُ أَنَّ الْفَحْلَ مِنَ الضَّأْنِ الَّذِي لَهُ قُرُونٌ يَكُونُ أَشَدَّ وَأَقْوَى.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ قَرْنَانِ كَتَاجِ الْمُلُوكِ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَمْ يُبَيِّنْ سَبَبَ تَسْمِيَّتِهِ بِذِي الْقَرْنَيْنِ، لَكِنْ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: الْمَالِكُ لِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ تَمَامًا؛ حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الشَّمْسِ إِنَّهَا: «تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ»^(٢).

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا - يُشِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ - مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ...، رَقْم (٣٥١١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَتَنِ وَأَشْرَاطُ السَّاعَةِ، بَابُ الْفِتْنَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ، رَقْم (٢٩٠٥).

(٢) متفق عليه، الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، رَقْم (٣٢٧٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصَرِهَا، بَابُ الْأَوْقَاتِ الَّتِي نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِيهَا، رَقْم (٢٩٠/٨٢٨)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قُلْ لِمَنْ سَأَلْتُكَ: ﴿سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وَلَيْسَ كُلُّ ذِكْرِهِ بَلْ ذِكْرًا
منه، ثُمَّ قَصَّ اللَّهُ الْقِصَّةَ:



الآيات (٨٤ - ٨٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٨٤﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

• • • • •

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك بثبوت ملكه وسهولة سيره وقوته.
﴿وَأَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي: شيئًا يتوصل به إلى مقصوده، وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يَعْنِي كُلَّ شَيْءٍ؛ لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض، والدليل على هذا أن (كل شيء) بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدى قال لسليمان عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ مَلَكَ الْيَمَنِ سَبَأً: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنها لم تُؤْتِ مُلْكَ السموات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ رِيحٍ عَادٍ: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومعلوم أنها ما دَمَرَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فالمساكين ما دَمَرَتْ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِينُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ أي: تَبَعَ السَّبَبَ الموصل لمقصوده فإنه كَانَ حَازِمًا،

انْتَفَعَ بِهَا أُعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْتَفِعُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمَلِكَ انْتَفَعَ ﴿فَأَنْبَغَ سَبَبًا﴾ وَجَالَ فِي الْأَرْضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَرَادَ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي تَغْرُبُ الشَّمْسُ فِيهِ، وَهُوَ الْبَحْرُ؛ لِأَنَّ السَّائِرَ إِلَى الْمَغْرِبِ سَوْفَ يَضْطَدُّ بِالْبَحْرِ، وَالشَّمْسُ إِذَا رَأَاهَا الرَّائِي وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِيهِ.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ هِيَ أَرْضُ الْبَحْرِ ﴿حَمِئَةٍ﴾ مُسَوَّدَةٌ مِنَ الْمَاءِ، لِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا مَكَثَ طَوِيلًا فِي الْأَرْضِ صَارَتْ سُودَاءُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا تَغْرُبُ فِي هَذِهِ الْعَيْنِ الْحَمِئَةِ حَسَبَ رُؤْيَا الْإِنْسَانِ، وَإِلَّا فَهِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الْعَيْنِ الْحَمِئَةِ، وَهِيَ تَدَوَّرُ عَلَى الْأَرْضِ، لَكِنْ لَا حَرَجَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُخْبِرُ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي تَرَاهُ عَيْنَاهُ بِحَسَبِ مَا رَأَاهُ.

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ أَي: عِنْدَ الْعَيْنِ الْحَمِئَةِ وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ خَيْرُهُ بَيْنَ أَنْ يُعَذِّبَهُم بِالْقَتْلِ أَوْ بغيرِ الْقَتْلِ، أَوْ يُحْسِنَ إِلَيْهِمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ ذِي الْقَرْيَيْنِ مَلِكٌ عَاقِلٌ، مَلِكٌ عَادِلٌ، وَيَدُلُّ لِعَقْلِهِ وَدِينِهِ أَنَّهُ:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

حَكَمٌ عَدْلٌ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وَذَلِكَ بِالشُّرْكِ لِأَنَّ الظُّلْمَ يُطْلَقُ عَلَى الشُّرْكِ وَعَلَى غَيْرِهِ، لَكِنَّ الظَّاهِرَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُنَا أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ الشُّرْكَ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾.

يقول: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ العذاب الذي يكون تعزيراً، وعذاب التعزير يرجع إلى رأي الحاكم، إما بالقتل أو بغيره.

﴿ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ لأنَّ العقوبات لا تُطهر الكافرين، فالمسلم تُطهره العقوبات، أما الكافر فلا، فإنه يعذب في الدنيا وفي الآخرة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: ﴿نُّكْرًا﴾ ينكره المَعَذَّب بفتح الذال، ولكنه بالنسبة لله تعالى ليس بنكر، بل هو حق وعدل، لكنه ينكره المَعَذَّب ويرى أنه شديد.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ المؤمن العامل للصالحات له جزاء عند الله ﴿الْحَسَنَىٰ﴾ وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن: ﴿الْحَسَنَىٰ﴾ هي الجنة. والزيادة هي النظر إلى وجه الله^(١).

﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: سنقول له قولاً يسراً لا صعوبة فيه، فوعده الظالم بأمرين: أنه يُعَذِّبُهُ، وأنه يَرُدُّهُ إلى ربه فيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا، والمؤمن وعده بأمرين: بأن له ﴿الْحَسَنَىٰ﴾، وأنه يُعَامِلُهُ بما فيه اليسر والسهولة، لكن تأمل في حال المشرك بدأ بتعذيبه ثم ننى بتعذيب الله، والمؤمن بدأ بثواب الله أولاً ثم بالمعاملة

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١)، ولفظه: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». وزاد في رواية: «ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾».

باليُسْرِ ثَانِيًا، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ لَّأَنَّ مَقْصُودَ الْمُؤْمِنِ الْوَصُولُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْوَصُولُ إِلَى
الْجَنَّةِ لَا شَكَّ أَنََّّهُ أَفْضَلُ وَأَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُقَالَ لَهُ قَوْلٌ يُسَرُّ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَعَذَابُ
الدُّنْيَا سَابِقٌ عَلَى عَذَابِ الْآخِرَةِ وَأَيْسَرُ مِنْهُ فَبَدَأَ بِهِ، وَأَيْضًا فَالْكَافِرُ يَخَافُ مِنْ عَذَابِ
الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالثَّانِي.



الآيات (٨٩ - ٩٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٨٩﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٩٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩١﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٢﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٩٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾. ﴿٩٣﴾

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أي: مَوْضِعَ طُلُوعِهَا، أَتَبَعَ أَوَّلًا السَّبَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَوَصَلَ إِلَى نِهَايَةِ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ بِمَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَشْرِقِ، لِأَنَّ عِمَارَةَ الْأَرْضِ تَكُونُ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»^(١) دُونَ الشَّالِ وَالْجَنُوبِ، لِأَنَّ الشَّالَ وَالْجَنُوبَ أَقْصَاهُ مِنَ الشَّالِ، وَأَقْصَاهُ مِنَ الْجَنُوبِ كُلُّهُ ثَلَجٌ لَيْسَ فِيهِ سَكَّانٌ، فَالسُّكَّانُ يَتَّبِعُونَ الشَّمْسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، أَوْ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ.

﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَيْسَ عِنْدَهُمْ بِنَاءٌ، وَلَا أَشْجَارٌ ظَلِيلَةٌ وَلَا دُورٌ وَلَا قُصُورٌ، وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ بَالِغٌ حَتَّىٰ قَالَ: وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ، لِأَنَّ الثِّيَابَ فِيهَا نَوْعٌ مِنَ السِّتْرِ، الْمَهْمُ أَنَّ الشَّمْسَ تَحْرِقُهُمْ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: الأمر كذلك على حقيقته.

﴿وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: قد علمنا علم اليقين بما عنده من وسائل الملك وامتداده، أي: بكل ما لديه من ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَتَبَعَ سَبًا﴾ يعني: سار واتخذ سبباً يصل به إلى مراده.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبالان عظيمان يحولان بين الجهة الشرقية من شرق آسية، والجهة الغربية، وهما جبالان عظيمان بينهما منفذ ينفذ منه الناس.

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من قبلهما.

﴿قَوْمًا﴾ قيل: إنهم الأتراك.

﴿لَا يَكَادُونَ يُفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيها قراءتان: (يُفْقَهُونَ) بفتح الياء والقاف و(يُفْقَهُونَ)

بضم الياء وكسر القاف، والفرق بينهما ظاهر: لا ﴿يُفْقَهُونَ﴾ يعني: هم، لا (يُفْقَهُونَ) أي: غيرهم، يعني: هم لا يعرفون لغة الناس.

والمخالف في اللغة له حالات: إمّا أن يعرف لغتك ويستطيع مخاطبتك بها،

وإمّا أن لا يعرف لغتك ولكن لا يستطيع أن يُخاطبك بها، وهذا ما تُفيده القراءتان

في حال هؤلاء القوم.



الآيتان (٩٤، ٩٥)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.﴾

• • ❦ • •

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ﴾ هُنا قد يقع إشكال: كيف يكونون ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ثُمَّ يُنْقَلُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ خَاطَبُوا ذَا الْقَرْنَيْنِ بِخَطَابٍ وَاضِحٍ فَصِيحٍ: ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ﴾؟

والجواب عن هذا سهل جدًا، وهو أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكًا عَظِيمًا، وَعِنْدَهُ مِنَ الْمَتَرَجِّحِينَ مَا يُعْرِفُ بِهِ مَا يُرِيدُ، وَمَا يَعْرِفُ بِهِ مَا يُرِيدُ غَيْرُهُ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَلْهَمَهُ لُغَةً النَّاسِ الَّذِينَ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ، الْمَهْمُ أَنَّهُمْ خَاطَبُوا ذَا الْقَرْنَيْنِ بِخَطَابٍ وَاضِحٍ، ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ﴾ نَادَوْهُ بِلَقَبِهِ تَعْظِيمًا لَهُ.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ هَاتَانِ قَبِيلَتَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَدَّثَ الصَّحَابَةَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَأْمُرُ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرَ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى،

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أَبَشِّرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ»، ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ...» إلخ الحديث^(١).

وهذا نَعَرَفُ خطأ مَنْ قال: إِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَكْلِ الْآدَمِيِّينَ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْقَصْرِ، وَبَعْضُهُمْ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الطُّولِ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ لَهُ أُذُنٌ يَفْتَرِشُهَا، وَأُذُنٌ يَلْتَحِفُ بِهَا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ هَذَا مِنْ خُرَافَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نُصَدِّقَهُ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، لَكِنْ قَدْ يَخْتَلِفُونَ كَمَا يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِي الْبَيْتَاتِ، فَتَجِدُ أَهْلَ خَطِّ الْاِسْتَوَاءِ بَيْنَهُمْ غَيْرَ بَيْتَةِ الشَّامِلِيِّينَ، فَكُلُّ لَهُ بَيْتَةٌ، الشَّرْقِيُّونَ الْآنَ يَخْتَلِفُونَ عَنْ أَهْلِ وَسْطِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، فَهَذَا رَبِّمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، أَمَا أَنْ يَخْتَلِفُوا اخْتِلَافًا فَادِحًا كَمَا يُذَكَّرُ، فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإفسادُ فِي الْأَرْضِ يَعُمُّ كُلَّ مَا كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، فَيَكُونُ بِالْقَتْلِ وَالتَّهْبِ وَبِالْانْحِرَافِ عَنِ السَّرِيعَةِ، وَفِي الشَّرِكِ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، الْمَهْمُ أَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى أَحَدٍ يَجْمِعُهُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أَيُّ: عَطَاءً.

﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يَعْنِي: حَاجِزًا يَمْنَعُ مِنْ حُضُورِهِمْ إِلَيْنَا، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يُعْطَوْهُ شَيْئًا، وَهَذَا اجْتِهَادٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، فَكَيْفَ يَقُولُونَ لِهَذَا الْمَلِكِ الَّذِي فَتَحَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ هَذَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يَقُولُ اللَّهُ لَا أَدَمُ أَخْرَجَ بَعَثَ النَّارَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِئَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا يقال إلا لشخصٍ لا يستطيع، لكنهم قالوا ذلك خوفاً من أن يردّ طلبهم، فقال في الجواب:

﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (ما) مبتدأ و (خير) خبر المبتدأ، يعني: الذي مكّني فيه ربي من الملك والمال والخدم، وكل شيء، خير من هذا العرض الذي عرضتم عليّ، وهذا كقول سليمان عليه الصلاة والسلام في هديّة ملكة سبأ، قال: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، وهذا من اعتراف الإنسان بنعم ربه عزّ وجلّ التي لا يحتاج معها إلى أحد.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بقوة بدنيّة لا بقوة ماليّة؛ لأنّه عنده من الأموال الشيء العظيم، ويحتمل أن يريد بالقوة الرجال دون المال.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يعني: أعظم ممّا سألتهم، فهم سألوا أن يبيّن لهم سداً، والرّدّم أعظم وأمنع من السدّ.



الآيات (٩٦ - ٩٨)

• • •

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦) ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَن يَصْهَرُوا وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧) ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

• • •

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الزُّبْرُ يعني القطعُ مِنَ الْحَدِيدِ، فَجَمَعُوا الْحَدِيدَ وَجَعَلُوهُ يُسَاوِي الْجِبَالَ، وهذا يدلُّ على الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، قَطَعَ الْحَدِيدَ تُجْمَعُ حَتَّى تُسَاوِيَ الْجِبَالَ الشَّاهِقَةَ الْعَظِيمَةَ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ يعني: جَانِبَيِ الْجَبَلَيْنِ ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ يعني: انْفُخُوا عَلَى هَذَا الْحَدِيدِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِأَفْوَاهِكُمْ؛ لَأَنَّ هَذَا لَا يُمَكِّنُ، وَلَكِنْ انْفُخُوا بِالْأَلَاتِ وَالْمُعَدَّاتِ الَّتِي عِنْدَهُ؛ لَأَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا، فَتَفَخَّخُوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، أَي صَيَّرَ قِطْعَ الْحَدِيدِ نَارًا، وَالْحَدِيدُ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ إِذَا أُوقِدَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ يَكُونُ نَارًا، تَكُونُ الْقِطْعَةُ كَأَنَّهَا جَهْرَةٌ، بَلْ أَشَدُّ مِنَ الْجَهْرَةِ، ثُمَّ طَلَبَ أَنْ يُؤْتَوْهُ قِطْرًا يُفْرِغُهُ عَلَيْهِ، وَالْقِطْرُ: هُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]، يعني: النَّحَاسُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ، بَدَلًا مَا كَانَ مَعْدِنًا قَاسِيًا يَحْتَاجُ إِلَى إِخْرَاجِ بِالْمَعَاوِلِ ثُمَّ صَهَرُ النَّارِ، أَسَالَ اللَّهُ لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ كَأَنَّهَا مَاءٌ -سبحان الله-.

قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ: ﴿ءَاتَوْنِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فَأَفْرَغَ عَلَيْهِ الْقِطْرَ -النُّحَاسُ- فَاثْتَبَكَ النُّحَاسُ مَعَ قِطْعِ الْحَدِيدِ فَكَانَ قَوِيًّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ و(مَا اسْتَطَاعُوا) معناهما واحدٌ في الأصل، وسَبَقَ فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾ و﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ﴾.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أَي: مَا قَدَرُوا أَنْ يَصْعَدُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عَالٍ؛ وَلِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ أَمْلَسَ، فَهَمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصْعَدُوا عَلَيْهِ.

﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لَمْ تَأْتِ النَّاءُ فِي الْفِعْلِ الْأَوَّلِ (اسْطَاعُوا) وَأَتَتْ فِيهِ ثَانِيًا، وَزِيَادَةُ الْمَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى، فَأَيُّهَا أَشَقُّ أَنْ يَصْعَدُوا الْجَبَلَ أَوْ أَنْ يَنْقُبُوا هَذَا الْحَدِيدَ؟

الْجَوَابُ: الثَّانِي أَصْعَبُ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لِأَنَّهُ حَدِيدٌ مَمْسُوكٌ بِالنُّحَاسِ، فَصَارُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ ظَهْرَهُ لَعُلُّوهُ وَمَلَاسَةَ جِدَارِهِ، فِيمَا يَظْهَرُ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا لَهُ نَقْبًا لَصَلَابَتِهِ وَقُوَّتِهِ، إِذَا: صَارَ سَدًّا مَنِيعًا وَكَفَى اللَّهُ شَرَّ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ وَهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ قَالَهَا ذُو الْقَرْنَيْنِ وَانْظُرْ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، كَيْفَ لَا يُسْنِدُونَ مَا يَعْمَلُونَهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُسْنِدُونَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِلَى فَضْلِهِ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَتِ النَّمْلَةُ حِينَ أَقْبَلَ سُلَيْمَانُ بِجُنُودِهِ عَلَى وَادِي النَّمْلِ، قَامَتْ نَمْلَةٌ مِنْهَا -وَكَانَتْ خَطِيبَةً فَصِيحَةً-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿[النمل: ١٨-١٩]، وَذُو الْقَرْنَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾

وَلَيْسَ بِخَوْفٍ وَلَا قُوَّةٍ، وَلَكِنَّهُ رَحْمَةٌ بِهِ وَرَحْمَةٌ بِالَّذِينَ طَلَبُوا مِنْهُ السَّدَّ، أَنْ حَصَلَ هَذَا الرَّدْمُ الْمَنِيْعُ.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يَعْنِي: بِخُرُوجِ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ.

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ يَعْنِي: جَعَلَ هَذَا السَّدَّ دَكًّا، أَي: مِنْهُدَمًا تَمَامًا وَسَوَّاهُ بِالْأَرْضِ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا»^(١). يَعْنِي: شَيْئًا سَيَرًا، لَكِنْ مَا ظَهَرَ فِيهِ الشَّقُّ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَسَّعَ.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ فَمَا هُوَ هَذَا الْوَعْدُ؟

الْجَوَابُ: الْوَعْدُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخْرِجُهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَذَلِكَ بَعْدَ خُرُوجِ الدَّجَالِ وَقَتْلِهِ يُخْرِجُ اللَّهُ هَؤُلَاءِ، يُخْرِجُهُمْ فِي عَالَمٍ كَثِيرٍ مِثْلَ الْجَرَادِ أَوْ أَكْثَرِ، «فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ طَبْرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ» ثُمَّ «يُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ» فِي جَبَلِ الطُّورِ، وَيُلْحَقُهُمْ مَشَقَّةٌ وَيَرْغَبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي هَلَاكِ هَؤُلَاءِ، «فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُضْبِحُونَ فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» يُضْبِحُونَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى كَثَرَتِهِمْ، مَيِّتِينَ مَيِّتَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى تَنْتِنَ الْأَرْضُ مِنْ رَائِحَتِهِمْ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ أَمْطَارًا تَحْمِلُهُمْ إِلَى الْبَحْرِ أَوْ يُرْسِلُ اللَّهُ طُيُورًا فَتَحْمِلُهُمْ إِلَى الْبَحْرِ^(٢)، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهَذِهِ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم

(٣٣٤٦)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج

ومأجوج، رقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته

وما معه، رقم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْأَشْيَاءُ نُوْمِنُ بِهَا كَمَا أَخْبَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، أَمَّا مَتَى تَصِلُ الْحَالُ إِلَى ذَلِكَ، فَهَذَا أَمْرُهُ إِلَى
اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ يعني: وَعَدُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خُرُوجِهِمْ كَانَ ﴿حَقًّا﴾ أَي: لَا بُدَّ
أَنْ يَقَعَ، فَكُلَّمَا وَعَدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ؛ لِأَنَّ إِخْلَافَ الْوَعْدِ مِنَ الْإِنْسَانِ: إِمَّا أَنْ
يَكُونَ عَنْ عَجْزٍ، أَوْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَنْ كَذِبٍ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنْهُمَا جَمِيعًا عَنِ الْعَجْزِ،
وَعَنِ الْكَذِبِ، فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَكَمَالِ صِدْقِهِ.



الآية (٩٩)

• • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا

﴿٩٩﴾

• • •

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المفسرون الذين رأيت كلامهم يقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: إذا خرجوا صار (يموج بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ)، ثم اختلفوا في معنى (يموج بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ) هل معناه أنهم يَمُوجُونَ مع الناس، أو يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ يَتَدافعُونَ عندَ الخُروجِ مِنَ السَّدِّ؟ وإذا كانَ أحدٌ مِنَ العُلَماءِ يقولُ: إِنَّهُ بعدَ الخُروجِ مِنَ السَّدِّ صارُوا هُم بأنفُسِهِم يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فهو أقربُ إلى سياقِ الآية، والله أعلمُ بِمُراده.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النافخُ إسرَافِيلُ أحدُ الملائكةِ الكِرامِ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْتَحُ صلاةَ اللَّيْلِ بهذا الاسْتِفتاحِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١)، هؤلاء الثلاثةُ الملائكةُ الكِرامُ، كُلُّ واحدٍ مِنْهُم مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ الْحَيَاةُ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

جَبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ النَّبَاتِ وَهُوَ الْقَطَرُ، وَإِسْرَافِيلُ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ النَّاسِ عِنْدَ الْبَعْثِ، يَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَتَيْنِ.

الأولى: نَفْخَةُ فَرْعٍ وَصَعْقٍ، وَلَا يُمْكِنُ الْآنَ أَنْ تُدْرِكَ عَظَمَةُ هَذَا النَّفْخِ، نَفْخٌ تَفْرَعُ الْخَلَائِقُ مِنْهُ وَتُصْعَقُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، كُلُّهُمْ يَمُوتُونَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، لَشِدَّةِ هَذَا النَّفْخِ وَشِدَّةِ وَقْعِهِ، مَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَصَوَّرَ لِأَنَّ النَّاسَ يَفْرَعُونَ، بَلْ فَرَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُصْعَقُونَ، -الله أكبر- شَيْءٌ عَظِيمٌ كَلَّمَا يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ يَقْشَعِرُّ جِلْدُهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَوْلِهِ.

النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ: نَفْخَةُ حَيَاةٍ وَبَعْثٍ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فَبِالنَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ يَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً يَنْظُرُونَ، مَاذَا حَدَثَ؟! لِأَنَّ الْأَجْسَامَ فِي الْقُبُورِ، يُنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مَطَرًا عَظِيمًا ثُمَّ تَنْمُو فِي دَاخِلِ الْأَرْضِ^(١)، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتْ تَكَامُلًا تَامًا يُفْخِ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الْبَعْثِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿تَجْمَعُهُمْ جَمْعًا﴾ أَي: جَمَعْنَا الْخَلَائِقَ ﴿جَمْعًا﴾ أَي: جَمْعًا عَظِيمًا، فَهَذَا الْجَمْعُ يَشْمَلُ: الْإِنْسَانَ، وَالْجِنَّ، وَالْمَلَائِكَةَ، وَالْوَحُوشَ، وَجَمِيعَ الدَّوَابِّ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا. قَالَ: أُبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا. قَالَ: أُبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ: أُبَيْتُ. قَالَ: ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، متفق عليه، أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] كُلُّ الْخَلَائِقِ، حَتَّى الْمَلَائِكَةُ -مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ- كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، يَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ عَظِيمٍ، اللَّهُ أَكْبَرُ.



الآيات (١٠٠ - ١٠٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِنَا أَنْعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٠٢)﴾.

• • • • •

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي: عَرَضْنَاهَا لَهُمْ فَتَكُونُ أَمَامَهُمْ - اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْهَا -.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ من أسماء النار.

﴿عَرَضًا﴾ يعني: عَرَضًا عَظِيمًا، ولذلك نُكِّرَ يَعْنِي: عَرَضًا عَظِيمًا، وَمِنْ الْحَكَمِ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِذَلِكَ أَنْ يُصْلَحَ الْإِنْسَانُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَخَافَ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ، وَأَنْ يَسْتَعِدَّ لَهُ، وَأَنْ يُصَوِّرَ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا قَالَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَكُلُّنَا مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

فتصوّر هذا، وتصور أنّه ليس بينك وبينه إلا أن تخرج هذه الروح من الجسد، وحينئذٍ ينتهي كل شيء من الدنيا.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١)﴾.

هذا بيان حال هؤلاء الكافرين الذين تُعرض لهم النار.

﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ هؤلاء الكافرون كانت أعيُنُهُمْ في غِطَاءٍ عَنْ

ذَكَرِ اللَّهُ، فِي غِشَاءٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ بِهِ.

﴿وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أَي: قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَمَاعِ الْحَقِّ، فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَاجِزِينَ عَنْهُ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ جَعَلَ عَلَى قُلُوبِ الْكُفَّارِ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أَي: أَفَظَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ مَنْ هُمْ عِبَادُهُ؟

الجواب: كُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وَمَنْ الَّذِي اتَّخَذَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَي: عَبْدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟
الجواب: عَبْدَتِ الْمَلَائِكَةُ، عَبْدَتِ الرُّسُلُ، وَعَبَدَتِ الشَّمْسُ، وَعَبَدَ الْقَمَرُ، وَعَبَدَتِ الْأَشْجَارُ، وَعَبَدَتِ الْأَحْجَارُ، وَعَبَدَتِ الْبَقَرُ! نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، الشَّيْطَانُ يَأْتِي ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ.

﴿مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي: أَرْبَابًا يَدْعُونَهُمْ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، وَيَنْسَوْنَ وِلَايَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَعْنِي: أَيُظَنُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ؟

الجواب: لَا، لَا يُنْصَرُونَ، وَمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ فَهُوَ مُجَبَّلٌ فِي عَقْلِهِ.

﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا﴾ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ هِيَ النَّارُ ﴿نُزْلًا﴾ لِلْكَافِرِينَ، وَمَعْنَى النُّزْلُ: مَا يُقَدَّمُهُ صَاحِبُ الْبَيْتِ لِلضَّيْفِ، وَيُجْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْمُنْزِلِ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، فَهُمْ نَازِلُونَ فِيهَا، وَهُمْ يُعْطَوْنَهَا كَأَنَّهَا ضِيَافَةٌ، وَبُسَّتِ الضِّيَافَةُ.



الآيات (١٠٣ - ١٠٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) ۞

• • • • •

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّدُ لِلأُمَّةِ كُلِّهَا: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾. الجواب: نعم. نريدُ أَنْ نُخْبَرَ عَنِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، حَتَّى نَتَجَنَّبَ عَمَلَهُمْ هَؤُلَاءِ، وَنَكُونَ مِنَ الرَّابِحِينَ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَصْرِ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ خَاسِرٌ، إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:

١- الَّذِينَ آمَنُوا.

٢- وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

٣- وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ.

٤- وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

وهنا يقول: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) ۞.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: ضَاعَ سَعِيَّهُمْ وَبَطَلَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَكِنَّهُمْ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فَعُطِيَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَظَنُّوا

وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ أَنَّ الْبَاطِلَ هُوَ الْحَقُّ، وَهَذَا كَثِيرٌ، فَالْيَهُودُ مَثَلًا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَالنَّصَارَى يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَالشُّعُوبُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَلِذَلِكَ مَكَثُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى حَقٍّ، لَكِنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لَا اسْتِكْبَارَ لَهُ وَاسْتِعْلَاءَ لَهُ أَصَرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَيَّانَتْ رَبِّهِمْ﴾ الْكُونِيَّةُ أَوِ الشَّرْعِيَّةُ؟

الظَاهِرُ كِلْتَاهُمَا، لَكِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ ﷺ، كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يُكَذِّبُوا بِالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَالِدَّلِيلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا سُئِلُوا: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ يَقُولُونَ: اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّ هُنَالِكَ خَالِقًا آخَرَ مَعَ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، كَذَّبُوا الرَّسُولَ ﷺ؛ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَ بِهِ، فَهُمْ دَاخِلُونَ فِي الْآيَةِ.

﴿وَلِقَائِهِ﴾ أَيُّ: كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، وَمَتَى يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ؟

الْجَوَابُ: يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهَؤُلَاءِ كَذَّبُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَادَلُوا، وَأَرَوْا الْآيَاتِ وَلَكِنَّهُمْ أَصَرُّوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴿[يس: ٧٧-٧٨] يُكَذِّبُنَا فِيهِ فَقَالَ: ﴿مَنْ يُعْزِزُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] نَحْدُ! مَنْ يُحْيِيهَا؟ رَمِيمٌ لَا فِيهَا حَيَاةٌ وَلَا شَيْءٌ؟﴾

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وَمَنْ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ؟

الْجَوَابُ: هُوَ اللَّهُ، وَالْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] هَذَا دَلِيلٌ، إِذَا: الدَّلِيلُ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ، وَإِحْيَاءِ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ:

١- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَدَأَهَا، وَلَمَّا قَالَ زَكَرِيَّا حِينَ بُشِّرَ بِالْوَلَدِ وَكَانَ قَدْ بَلَغَ فِي الْكِبَرِ عِتِيًّا، إِنَّ امْرَأَتَهُ عَاقِرٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، فالذي خَلَقَكَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنْتَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لَكَ وَلَدًا.

٢- ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] وإذا كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمًا، فَإِنَّهُ لَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، مَنْ الَّذِي يَمْنَعُهُ إِذَا كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ خَلْقٍ؟
الجواب: لَا أَحَدَ يَمْنَعُهُ.

٣- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] شَجَرٌ أَخْضَرٌ يُخْرِجُ مِنْهُ نَارٌ، فَالشَّجَرُ الْأَخْضَرُ يُضْرَبُ بِالزَّنْدِ ثُمَّ يَنْقَدِحُ نَارًا، وَكَانَ الْعَرَبُ يَعْرِفُونَ هَذَا، فَالَّذِي يُخْرِجُ هَذِهِ النَّارَ، وَهِيَ حَارَّةٌ يَابِسَةٌ مِنْ غُصْنٍ رَطْبٍ بَارِدٍ، يَعْنِي: مُتَضَادَانِ غَايَةَ التَّضَادِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ، أَوْ أَنْ يُعِيدَ خَلْقَ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ، ثُمَّ حَقَّقَ هَذِهِ النَّارَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ تُوْقِدُونَ﴾.

٤- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟

[يس: ٨١].

الجواب: بَلَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فَالَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِكِبَرِهَا، وَعِظَمِهَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَ جُزْءًا مِنْ لَا شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَرْضِ، مَنْ أَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَرْضِ؟ لَا شَيْءَ، أَنْتَ خُلِقْتَ مِنْهَا، أَنْتَ بَعْضُ يَسِيرٍ مِنْهَا، فَالَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا نَفْسَهُ: ﴿بَلَى﴾ [يس: ٨١].

٥ - ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] الْخَلْقُ صِغَةُ مبالغَةٍ، وَإِنْ شئتَ فَاجْعَلْهَا نِسْبَةً، يَعْنِي: أَنَّهُ موصوفٌ بِالْخَلْقِ أَزْلاً وَأَبْداً، وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ قَبْلُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

٦ - ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لَا يَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ وَلَا بَنَائِينَ وَلَا أَحَدٍ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، كَلِمَةً وَاحِدَةً.

٧ - ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] كُلُّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ مَلَكُوتُهُ عَزَّجَلَّ يَتَصَرَّفُ كَمَا يَشَاءُ، فَنَسَّأَلُهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

٨ - ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] فَهَذَا هُوَ الدَّلِيلُ الثَّامِنُ، وَإِنَّمَا كَانَ دَلِيلًا؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا رُجُوعُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَكَانَ وُجُودُنَا عَبَثًا، وَهَذَا يُنَافِي الْحِكْمَةَ، فَتأملْ سِيَاقَ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الثَّمَانِيَةِ فِي هَذَا الْقَوْلِ الْمُوجِزِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُنْكِرُونَ لِقَاءَ اللَّهِ.

فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيَّانَتْ رَبِّهِمْ﴾ إلْزَامٌ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ كَوْنُهُ رَبَّهُمْ عَزَّجَلَّ يَجِبُ أَنْ يُطِيعُوهُ وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، لَكِنْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ.

﴿فَخِطَّتْ أَعْمَلَهُمْ﴾ يَعْنِي: بَطَلَتْ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، حَتَّى لَوْ أَنَّ الْكَافِرَ أَحْسَنَ وَأَصْلَحَ الطَّرِيقَ وَبَنَى الرُّبْطَ، وَتَصَدَّقَ عَلَى الْفُقَرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُ، إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُشِيبَهُ عَجَلَ اللَّهِ لَهُ الثَّوَابَ فِي الدُّنْيَا، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَلَا نَصِيبَ لَهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْحِمَاةَ وَالْعَافِيَةَ، لِأَنَّ أَعْمَالَهُ خَبِطَتْ، وَلَكِنْ هَلْ يَخْبِطُ الْعَمَلُ بِمَجَرَّدِ الرَّدَّةِ أَمْ لَا بُدَّ مِنْ شَرْطٍ؟

الجواب: لَا بُدَّ مِنْ شَرْطٍ، وَهُوَ أَنْ يَمُوتَ عَلَى رِدَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ

يَرْتَدِّدُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ﴿[البقرة: ٢١٧]، أَمَّا لَوْ ارْتَدَّ، ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ
يَعُودُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الصَّالِحُ السَّابِقُ لِلرَّدَّةِ.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ يعني: أَنَّهُ لَا قَدَرَ لَهُمْ عِنْدَنَا وَلَا مِيزَانَ، وَهُوَ
كِنَايَةٌ عَنْ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ.

وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّنَا لَا نَزِيهِهُمْ، لِأَنَّ الْوِزْنَ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِمَعْرِفَةِ مَا يَتَرَجَّحُ مِنْ
حَسَنَاتٍ أَوْ سَيِّئَاتٍ، وَالْكَافِرُ لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ حَتَّى يُوزَنَ، وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ الْأَعْمَالَ
تُوزَنُ كُلُّهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-١١]، فَيُقَامُ الْوِزْنُ؛ لِإِظْهَارِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْمَسْأَلَةُ
هَذِهِ فِيهَا خِلَافٌ.



الآيتان (١٠٦، ١٠٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (١٠٧) ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذَلِكَ المذكور مِنْ أَنَّهُ لَا يُقَامُ لَهُمُ الْوِزْنُ، وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ تَكُونُ حَابِطَةً.

﴿جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ الباء للسببية و(ما) مَصْدَرِيَّةٌ وتقديرُ الكلام: بِكُفْرِهِمْ. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ معطوفةٌ على ﴿كَفَرُوا﴾ أي: بِمَا كَفَرُوا واتَّخَذُوا، فهم -والعياذ بالله- كَفَرُوا وتعدَّى كُفْرَهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، صَارُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْآيَاتِ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالرُّسُلِ، وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ.

﴿هُزُوًا﴾ أي: مَحَلُّ هُزُؤٍ، يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وَيَقُولُونَ: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾! [الفرقان: ٤١]، وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لَا يَخْفَى أَنَّهُ لِلتَّحْقِيرِ، أَهَذَا الرَّسُولُ! ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]. أَعُوذُ بِاللَّهِ؛ يَفْتَحِرُونَ أَنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَى آلِهَتِهِمْ وَانْتَصَرُوا لَهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ ثَوَابَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٠٧) ﴾ .

بَدَلْ مَا كَانَتْ جَهَنَّمُ نَزْلًا لِلْكَافِرِينَ، صَارَتْ جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ نَزْلًا لِلْمُؤْمِنِينَ،
لَكِنْ بَشَرَطِينَ:

١- الْإِيمَانُ.

٢- الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَالْإِيمَانُ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَحَلُّهُ الْجَوَارِحُ، وَقَدْ يَرَادُ بِهِ أَيْضًا عَمَلُ
الْقَلْبِ، كَالْتَوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْإِنَابَةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

﴿وَالصَّلَاحَتِ﴾ هِيَ الَّتِي كَانَتْ خَالِصَةً لِلَّهِ، وَمُوَافَقَةً لَشَرِيعَةِ اللَّهِ.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ صَالِحًا إِلَّا بِهَذَا، الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْمُوَافَقَةِ لَشَرِيعَةِ
اللَّهِ، فَمَنْ أَشْرَكَ؛ فَعَمَلُهُ غَيْرُ صَالِحٍ، وَمَنْ ابْتَدَعَ فَعَمَلُهُ غَيْرُ صَالِحٍ، وَيَكُونُ مَرْدُودًا
عَلَيْهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ
الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، أَي: مَرْدُودٌ
عَلَيْهِ، فَصَارَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا جَمَعَ وَصَفَيْنِ: الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةَ لَشَرِيعَةِ اللَّهِ،
أَوْ لِرَسُولِ اللَّهِ؟

الْجَوَابُ: لَشَرِيعَةِ اللَّهِ أَحْسَنُ، إِلَّا إِذَا أُريدَ بِالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ: الْخِنْسُ، دُونَ
مُحَمَّدٍ ﷺ فَنَعَمْ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَقَوْمِ عِيسَى يَدْخُلُونَ فِي هَذَا.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَاقِطِ، بَابُ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ، رَقْمُ (٢٩٨٥)، مِنْ
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) عُلِقَ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْبُيُوعِ، بَابُ النَّجْشِ، (٣/٦٩)، وَوَصَلَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ
نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، رَقْمُ (١٧١٨)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ هل المراد بِالْكَيْنُونَةِ هنا الكَيْنُونَةُ الماضية، أو المراد تحقيق كونها نُزُلًا لهم؟ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؟ نقول: الأمران واقعان، فكانت في علم الله نُزُلًا لهم، وكانت نُزُلًا لهم على وجه التحقيق؛ لأن (كان) قد يُسَلَبُ منها معنى الزمان، ويكون المراد بها التحقيق.

﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ هل هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أو لأنَّ الفردوس هو أعلى الجنات، والجنات الأخرى تحته؟

الجواب: الظاهر الثاني لأنه ليس جميع المؤمنين الذين عملوا الصالحات ليسوا كلهم في الفردوس، بل هم في جنات الفردوس، والفردوس قال النبي ﷺ: «فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»^(١) أعلى الجنة ووسط الجنة معناه: أن الجنة مثل القبة، وفيه أيضًا وصف رابع: ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (١٠٨، ١٠٩)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ ١٠٨ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ١٠٩ ﴾ .

• • •

قوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ولا نزاع في هذا بين أهل السنة.

﴿لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أي: لا يطلبون عنها بدلًا، ﴿حَوْلًا﴾ أي: تحوُّلاً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ راضٍ بما هو فيه من النعم، وكلُّ واحدٍ لا يرى أنَّ أحداً أكمل منه، وهذا من تمام النعيم، أنت مثلاً لو نزلت قصرًا مَنيفاً فيه من كلِّ ما يُبهِجُ النفس، ولكنك ترى قصر فلانٍ أعظم منه، هل يكملُ سرورُكَ؟

الجواب: من يريد الدنيا لا يكملُ سروره، لأنَّه يرى أنَّ غيره خيرٌ منه، لكن في الجنة، وإن كان الناس درجاتٍ، لكنَّ النازل منهم - وليس فيهم نازل - يرى أنَّه لا أحدٌ أنعمَ منه، عكسُ أهل النار، أهل النارِ يرى الواحد منهم أنَّه لا أحدٌ أشدَّ منه، وأنَّه أشدُّهم عذاباً.

﴿لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ يعني: لو قيل للواحد: هل ترغبُ أن نجعلَكَ في مكانٍ آخر غير مكانِكَ لقال: «لا»، وهذا من نعمة الله على الإنسان أن يقنع الإنسان بما أعطاه الله عزَّوجلَّ وأن يطمئنَّ ولا يقلق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّدٌ: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا﴾ يعني: حَبْرًا يُكْتَبُ بِهِ ﴿لَكَلِمَتٍ رَزَى﴾.

﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ قبل أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لِأَنَّهُ الْمَدْبَرُ لِكُلِّ الْأُمُورِ، وَبِكَلِمَةٍ ﴿كُنْ﴾ لَا تَفَادَ لِكَلَامِهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ إِنَّ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾، أي: لو كَانَ أَقْلَامًا ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، لَنَفِدَ الْبَحْرُ وَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ جَلَّوَعَلَا بَاقِيَةً.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ يعني زيادةً، فَإِنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ لَا تَنفَدُ، وَفِي هَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ عَلَى إِبْطَاتِ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَلِمَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ كُونِيَّةٌ، وَشَرْعِيَّةٌ، أَمَّا الشَّرْعِيَّةُ فَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى رُسُلِهِ، وَأَمَّا الْكُونِيَّةُ فَهِيَ مَا قَضَى بِهِ قَدْرُهُ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وَكُلُّ شَيْءٍ بِإِرَادَتِهِ، إِذَا: فَهُوَ يَقُولُ لِكُلِّ شَيْءٍ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، وَمِنَ الْكَلِمَاتِ الشَّرْعِيَّةِ مَا أَوْحَاهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى مَنْ دُونَ الرُّسُلِ، كَالْكَلِمَاتِ الَّتِي أَوْحَاهَا إِلَى آدَمَ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ، وَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ وَنَهَاها، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ كَلِمَاتُ شَرْعِيَّةٍ.



الآية (١١٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ ﴾ .

• • • • •

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ يعني: أَعْلِنُ لِلْمَلَائِكَةِ لستَ مَلَكًا، وَأَنْتَ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ ﴿أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وَذِكْرُ الْمِثْلِيَّةِ لِتَحْقِيقِ الْبَشَرِيَّةِ، أَي: أَنَّهُ بَشَرٌ لَا يَتَعَدَّى الْبَشَرِيَّةَ، وَلِذَلِكَ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ النَّاسُ، وَكَانَ ﷺ يَمْرُضُ كَمَا يَمْرُضُ النَّاسُ، وَكَانَ يَجُوعُ كَمَا يَجُوعُ النَّاسُ، وَكَانَ يَعْطَشُ كَمَا يَعْطَشُ النَّاسُ، وَكَانَ يَتَوَقَّى الْحَرَّ كَمَا يَتَوَقَّى النَّاسُ، وَكَانَ يَتَوَقَّى سِهَامَ الْقِتَالِ كَمَا يَتَوَقَّى النَّاسُ، وَكَانَ يَنْسَى كَمَا يَنْسَى النَّاسُ، كُلُّ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ثَابِتَةٌ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَكَانَ لَهُ ظِلٌّ كَمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ.

أَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نُورَانِيٌّ، لَيْسَ لَهُ ظِلٌّ فَهَذَا كَذِبٌ بِلَا شَكٍّ، فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَغَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ لَهُ ظِلٌّ وَيَسْتَظِلُّ أَيْضًا، وَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ لَهُ ظِلٌّ، لَنُقِلَ هَذَا نَقْلًا مُتَوَاتِرًا؛ لِأَنَّهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِذَا: الرَّسُولُ ﷺ بَشَرٌ مِثْلُ النَّاسِ، وَهَلْ يَقْدِرُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَجْلِبَ لِلنَّاسِ نَفْعًا أَوْ ضَرًّا؟

الجواب: لَا، كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

[الجن: ٢١]، وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ أَقْوَامًا لَا يَزَالُونَ مَوْجُودِينَ، يَتَعَلَّقُونَ بِالرَّسُولِ ﷺ

أَكْثَرَ مِمَّا يَتَعَلَّقُونَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ إِذَا ذُكِرَ الرَّسُولُ ﷺ أَفْشَعَتْ جُلُودُهُمْ، وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ كَأَن لَّمْ يُذَكَّرْ! حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يُؤْثِرُ أَنْ يَخْلِفَ بِالرَّسُولِ ﷺ دُونَ أَنْ يَخْلِفَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَحَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يَرَى أَنَّ زِيَارَةَ قَبْرِ الرَّسُولِ ﷺ، أَفْضَلُ مِنْ زِيَارَةِ الْكَعْبَةِ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ أَنَا سَا حُجَّزُوا عَنِ الْمَدِينَةِ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ لِقُرْبِ وَقْتِ الْحَجِّ، لِأَنَّهُ إِذَا قُرِبَ وَقْتُ الْحَجِّ مَنَعُوهُمْ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِئَلَّا يَقُوتَهُمُ الْحَجُّ، يَبْكِي! يَقُولُ: أَنَا مُنِعْتُ مِنَ الْأَنْوَارِ، وَمُنِعْتُ مِنْ كَذَا وَكَذَا وَيُعَدُّ مَا نَسِيْتُهُ الْآنَ، فَيَقَالُ لَهُ: أَنْتَ لِمَاذَا جِئْتَ؟ قَالَ: جِئْتُ لِمُشَاهَدَةِ الْأَنْوَارِ كَأَنَّهُ مَا جَاءَ إِلَّا لَزِيَارَةِ الْمَدِينَةِ، وَنَسِيَّ أَنَّهُ جَاءَ لِيُؤَدِّيَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ، وَسَبَبُ ذَلِكَ الْجَهْلُ؛ وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ لَا يَبِينُونَ لِلْعَامَّةِ، وَإِلَّا فَالْعَامِّيُّ عِنْدَهُ عَاطِفَةٌ جَيَّاشَةٌ لَوْ أَنَّهُ أُخْبِرَ بِالْحَقِّ لَرَجَعَ إِلَيْهِ.

﴿يُوحَىٰ إِلَى﴾ هَذَا هُوَ الْمِيزَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ، أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَغَيْرُهُ لَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، إِلَّا إِخْوَانُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ حَضَرٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا وَاحِدٌ، وَاسْتَفَدْنَا أَنَّهَا لِلْحَضَرِ مِنْ (إِنَّمَا)؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (إِنَّمَا) مِنْ أَدَوَاتِ الْحَضَرِ، تَقُولُ: «إِنَّمَا زَيْدٌ قَائِمٌ» يَعْنِي: لَيْسَ لَهُ وَصْفٌ غَيْرَ الْقِيَامِ، وَتَقُولُ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ» وَلَيْسَ هُنَاكَ طَرِيقٌ لِلْعِلْمِ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أَي: يَأْمُلُ أَنْ يُلْقَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ وَيُؤْمِنُ بِذَلِكَ.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ دَعْوَةٌ يَسِيرَةٌ سَهْلَةٌ، أَتَرِيدُ أَنْ تَلْقَى رَبَّكَ وَقَلْبُكَ مَمْلُوءٌ بِالرَّجَاءِ؟ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، كُلُّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلِقَاءَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَيْسَ بِبَعِيدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:

إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ بِمَعْنَى قَوْلِهِمْ: «كُلُّ آتٍ قَرِيبٌ».

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَسْتُمْ قَرَرْتُمْ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ إِخْلَاصٍ وَمَتَابَعَةٍ؟ قُلْنَا: بَلَى، لَكِنَّهُ لِمَا كَانَ الْإِخْلَاصُ ذَا أَهْمِيَّةٍ عَظِيمَةٍ ذَكَرَهُ تَخْصِيصًا بَعْدَ دُخُولِهِ ضِمْنِ قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ جَلَّوَعَلَا حَقِيقٌ بِأَنْ لَا يُشْرَكَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، إِنَّا نَقُولُ بِقُلُوبِنَا وَأَلْسِنَتِنَا: «رَبُّنَا اللَّهُ» وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْإِسْتِقَامَةَ حَتَّى نَدْخُلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَنَا لِإِكْمَالِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	الحديث
٤٢.....	أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟
٥٥.....	أُخْبِرْكُمْ غَدًا [لما سألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف]
١٣٢.....	إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ
	أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ
٧٨.....	بَشِيرٍ
٦٩.....	أَعُوذُ بِوَجْهِكَ
١١٥.....	أَلَا تُصَلِّيَانِ
١٥٠.....	أَنَّ الزِّيَادَةَ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ
٧٢، ٧١.....	إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ
١٠٥.....	أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ [الملائكة] مِنْ نُورٍ
١٥٢.....	إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا
٤٨.....	أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَرَّ الصَّحَابَةَ الَّذِينَ بَاعُوا التَّمَرَ الرَّدْيَ بِتَمَرٍ جَيِّدٍ
١١٧.....	أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا رَبَّهُ أَلَا يُهِلِكَ أُمَّتَهُ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ
٧١.....	أَنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ
١٣.....	أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،
	أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ
١٧٢.....	وَشُرْكَه

- إِنِّي قَدْ سَرَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ١٠٠
- الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ٥٨
- تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْيَتَيْنِ شَيْطَانٍ [الشمس] ١٤٧
- تَوَضُّؤُوا مِنْ حُومِ الْإِبِلِ وَلَا تَوَضُّؤُوا مِنْ حُومِ الْغَنَمِ ١١٤
- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ، إِنِّي لَفِي الْحُجْرَةِ، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا ٦٣
- حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ ١٤٦
- خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ٧٢
- رَخَّصَ ﷺ لِأُمَّتِهِ أَنْ يُوَاصِلُوا إِلَى السَّحَرِ ٢٤
- فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ١٧٣
- فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بَحِيرَةٍ طَرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءً ١٥٩
- قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاعْفِرْ لِي ٢٧
- كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَامَ يَخْطُبُ يَوْمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٢٦
- كَذَبَ أَبُو السَّنَابِلِ ١٩
- لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَلَماً يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٥٦
- لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ٥١
- لَقَدْ أَمَرَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ لِيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ ١٣٦
- اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ١٦١

- لَيْسَ الْحَبْرُ كَالْمُعَايِنَةِ ٣٠
- مَا أُوْتِيَ قَوْمٌ الْجَدَلَ إِلَّا ضَلُّوا ١١٤
- مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ (فِي شَيْءٍ يُعْجِبُهُ مِنْ مَالِهِ) ٨٨
- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ١٧٢
- مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ١٤٠
- مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ١١٥، ٥٧
- وَفِي الرَّقَّةِ رُبْعُ الْعُشْرِ ٤٧
- وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فَتَحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ
وَحَلَقَ بِإِصْبَعِهِ ١٥٩
- يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ ١٥٤
- يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ١٠٤
- يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ١٤١
- يُخْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرُلًا ١٠١



فهرس الفوائد

الصفحة	الفائدة
١١	حالات وصف الله تعالى لنيئه ﷺ بالعبودية.....
١٤	التفسير بالمقابلة.....
١٥	الرد على من قال بفناء النار.....
١٧	(عزير) ليس بنبي ولكنه عبد صالح.....
٢٢	إذا تأملت القرآن تجد أنه غالباً يُقدّم الشرع على الخلق.....
٣٠	توجيه قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ﴾.....
٣٢	التعبير من الله تعالى بـ(نحن) وتوجيهه.....
٣٧	الاستفهام إذا ضمّن معنى النفي فهو مُشربّ معنى التّحدي.....
٣٧	الجمع بين الآيات التي وردت بلفظ «مَنْ أَظْلَم».....
٤٤	الحكمة من قلب أصحاب الكهف.....
٥٧	حكم تعليق الفعل بالمشيئة لمن أراد فعل شيء في المستقبل.....
٥٩	(عسى) إذا كانت من الخالق فهي للوقوع، ومن المخلوق للترجي.....
١٠٣	الصفات المنفية عن الله تعالى.....
١٠٧	لم يخلق الله شيئاً بيده إلا آدم وجنة عدن.....
١٠٧	آدم عليه السلام نبيّ وليس برسول.....
١٠٨	هل إبليس من الملائكة أو من الجن؟.....
١٣١	الحضر ليس بنبي ولا رسول.....

- ١٤٠ إثباتُ الإرادةِ للجَمادات، ونَفْيُ المَجَازِ في القرآن..
- ١٤١ الفرقُ بَيْنَ (السَّينِ) و«سَوَفَ» في اللُّغة..
- ١٥٥ أَشْكالُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ..
- ١٦٩ هلِ العَمَلُ يُحْبِطُ بِمُجَرَّدِ الرَّدَّةِ..
- ١٧١ ثوابُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحات..
- ١٧٢ العَمَلُ الصالحُ ما جَمَعَ وَصَفَيْنِ..
- ١٧٥ كَلِماتُ الله عَزَّوَجَلَّ كَوْنِيَّةٌ وَشَرَعِيَّةٌ..
- ١٧٦ الرَّدُّ على مَنْ زَعَمَ أَنَّ الرِّسولَ ﷺ نُورَانِي..



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم.....	٥
صورة من تعديلات فضيلة الشيخ رحمه الله على هذا الكتاب.....	٧
تفسير سورة الكهف.....	٩
تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...﴾ (١).....	١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فِيمَا لِيُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ...﴾ (٢).....	١١
تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا...﴾ (٣).....	١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا...﴾ (٤).....	١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ...﴾ (٥).....	١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ...﴾ (٦).....	٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا...﴾ (٧).....	٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا...﴾ (٨).....	٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ...﴾ (٩).....	٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا...﴾ (١٠).....	٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا...﴾ (١١).....	٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لِسُوءَا أَمَدًا...﴾ (١٢).....	٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...﴾ (١٣).....	٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا...﴾ (١٤).....	٣٤

- تفسير قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِي ۥٓءَالِهَةً...﴾ (١٥) ٣٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَعَزَّزْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ (١٦) ٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ...﴾ (١٧) ٤١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً كَاطًا وَهُمْ رُزُودٌ...﴾ (١٨) ٤٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِيسَاءِ لُوا بَيْنَهُمْ...﴾ (١٩) ٤٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ...﴾ (٢٠) ٤٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعَزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ...﴾ (٢١) ٥٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ...﴾ (٢٢) ٥١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا...﴾ (٢٣) ٥٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ...﴾ (٢٤) ٥٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْشُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا...﴾ (٢٥) ٦٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا لَهُ ۚ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (٢٦) ٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ...﴾ (٢٧) ٦٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ (٢٨) ٦٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٢٩) ٧٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ (٣٠) ٧٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ...﴾ (٣١) ٧٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ...﴾ (٣٢) ٨٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا...﴾ (٣٣) ٨٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ۚ ثُمَّ قَالَ لِيَصْحَبِهِ ۚ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ...﴾ (٣٤) ٨١

- تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ...﴾ (٣٥) ٨٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً...﴾ (٣٦) ٨٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ...﴾ (٣٧) ٨٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا...﴾ (٣٨) ٨٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾ (٣٩) ٨٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ...﴾ (٤٠) ٨٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا...﴾ (٤١) ٨٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفْتَهُ عَلَى مَا اتَّفَقَ فِيهَا...﴾ (٤٢) ٩٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَضُرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا...﴾ (٤٣) ٩٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا...﴾ (٤٤) ٩١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ (٤٥) ٩٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (٤٦) ٩٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ السُّرُجُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً...﴾ (٤٧) ٩٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ (٤٨) ١٠٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ...﴾ (٤٩) ١٠١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ (٥٠) ١٠٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ...﴾ (٥١) ١١١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ...﴾ (٥٢) ١١٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا...﴾ (٥٣) ١١٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾ (٥٤) ١١٣

- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى...﴾ (٥٥) ١١٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾ (٥٦) ١١٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا...﴾ (٥٧) ١٢٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ...﴾ (٥٨) ١٢٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا...﴾ (٥٩) ١٢٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ...﴾ (٦٠) ١٢٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا بَعْجَ بَيْنَهُمَا سَبِيلًا حَوَتْهُمَا...﴾ (٦١) ١٢٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَدْعَا نَا...﴾ (٦٢) ١٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ...﴾ (٦٣) ١٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا...﴾ (٦٤) ١٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا...﴾ (٦٥) ١٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكُم عَلَىٰ أَنْ تُعْلِمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا...﴾ (٦٦) ١٣٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...﴾ (٦٧) ١٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا...﴾ (٦٨) ١٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا...﴾ (٦٩) ١٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ...﴾ (٧٠) ١٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا...﴾ (٧١) ١٣٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...﴾ (٧٢) ١٣٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا...﴾ (٧٣) ١٣٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ...﴾ (٧٤) ١٣٨

- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) ١٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّجْنِي...﴾ (٧٦) ١٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا...﴾ (٧٧) ١٤٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ...﴾ (٧٨) ١٤١
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ...﴾ (٧٩) ١٤٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا...﴾ (٨٠) ١٤٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَارَدْنَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١) ١٤٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ...﴾ (٨٢) ١٤٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ...﴾ (٨٣) ١٤٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤) ١٤٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَغُ سَبَبًا﴾ (٨٥) ١٤٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ...﴾ (٨٦) ١٤٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ...﴾ (٨٧) ١٤٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ...﴾ (٨٨) ١٥٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَغُ سَبَبًا﴾ (٨٩) ١٥٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ...﴾ (٩٠) ١٥٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٩١) ١٥٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا...﴾ (٩٢) ١٥٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (٩٤) ١٥٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ...﴾ (٩٥) ١٥٦

- تفسير قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا...﴾ (١٦) ١٥٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (١٧) ١٥٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ...﴾ (١٨) ١٥٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَرَكُنَا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ (١٩) ١٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (٢٠) ١٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ (٢١) ١٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَخَذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ...﴾ (٢٢) ١٦٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْآخِرِينَ أَعْمَلًا﴾ (٢٣) ١٦٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا...﴾ (٢٤) ١٦٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ...﴾ (٢٥) ١٦٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (٢٦) ١٧١
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (٢٧) .. ١٧١
- تفسير قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (٢٨) ١٧٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّوْكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ...﴾ (٢٩) ١٧٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ...﴾ (٣٠) ١٧٦
- فهرس الأحاديث والآثار ١٧٩
- فهرس الفوائد ١٨٢
- فهرس الموضوعات ١٨٤